

الفكر السياسي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق
تعنى بنشر المواد الفكرية والسياسية والاجتماعية والوثائق المتعلقة بها

السنة العشرون / العدد 72 / الربع الرابع لعام 2019م

الهدير المسؤول أ. مالك صقور

رئيس اتحاد الكتاب العرب

رئيس التحرير

د. جابر سلمان

مدير التحرير

أ. الأرقم الزعبي

أهينا التحرير

أ. نذير جعفر

ميرنا أوغلانبيان

هيئة التحرير

د. إبراهيم أحمد سعيد د. تركي صقور

د. خلف الجراد د. اسكندر لوقا

أ. عبد الأحد يوسف سفر د. عبد اللطيف عمران

د. مصطفى العبد الله الكفري

التصوير والإخراج

وفاء الساطي

الاشتراك السنوي

- أعضاء اتحاد الكتاب العرب 400 ل.س.
- في داخل القطر، للأفراد 600 ل.س.
- في داخل القطر، للدوائر الرسمية 1600 ل.س.
- الأقطار العربية، للأفراد 3000 ل.س. أو 200 دولار
- الأقطار العربية، للدوائر الرسمية 10,000 ل.س. أو 250 دولاراً أمريكياً.
- في خارج الوطن العربي، للأفراد 10000 ل.س. أو 300 دولار أمريكي.
- في خارج الوطن العربي للدوائر الرسمية 15000 ل.س. أو 350 دولاراً أمريكياً

دمشق - أوتستراد المزة - ص.ب: 3230

هـ - 6117240 - 6117242

6117243 فاكس: 6117244

البريد الإلكتروني لاتحاد الكتاب العرب:

Email: alfikralsiyasi@mail.com

Website: <http://www.awu.sy>

شروط النشر في مجلة الفكر السياسي

- 1 - أن تتسم الأبحاث والدراسات بالجدة والمنهجية وسلامة اللغة.
- 2 - أن تكون ذات طابع فكري سياسي.
- 3 - ألا يزيد حجم البحث عن ثمانية آلاف كلمة، وتستثنى من ذلك الملفات.
- 4 - أن تُرفق بالبحث سيرة وجيزة تتضمن الاسم الثلاثي للباحث.
- 5 - أن يُرسل البحث مرفقاً بقرص مدمج (CD) أو عن طريق البريد الإلكتروني للاتحاد أو عن طريق موقع الاتحاد الإلكتروني.
- 6- أن توضع حواشي البحث ومصادره ومراجعته في نهاية المادة.
- 7 - أن توجه جميع المراسلات باسم رئاسة التحرير.
- 8 - ألا تُردّ المواد التي تتلقاها المجلة إلى أصحابها سواء نُشرت أم لم تُنشر.
- 9 - لا تقبل البحوث والدراسات غير الموثقة علمياً.

التوزيع في الجمهورية العربية السورية:

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
فكس: 2122532 / هاتف: 2127797 / ص.ب: 12035

ملاحظة: الأبحاث والمقالات المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها،
وترتيبها يخضع لامتحانات فنية.

في هذا العدد:

الافتتاحية

العثمانية الجديدة وتناغمها مع الخط الصهيوني المتطرفاً د. جابر إبراهيم سلمان 5

الدراسات

- 11 - الهوية الوطنية السورية : تحديات التشكيل والمآل شعبياً د. فاروق اسليم 11
- 31 - الهوية الثقافية د. عيسى درويش 31
- 43 - الاستشراق الغربي والمشروع الصهيوني د. أكرم الشلي 43
- 59 - العلاقات السورية - الإيرانية د. عبد الله الشاهر 59
- 73 - مفهوم العقيدة الأوراسية ومستقبلها د. تركي صقر 73
- 85 - دولة فرسان مالطا زبير سلطان 85

ترجمات

- 109 - ماذا يحدث بالفعل في سورية: من الذي بدأ الحرب؟ ت: د. حسين عزيز صالح 109
- 133 - دعوة إلى الإعدام ت: د. إبراهيم استنبولي 133

آراء

- 151 - الإبادة بالثقافة نبيل نوفل 151

نافذة أخيرة

- 163 - دولة سينة السمعة الأرقم الزعبي 163

من أقوال السيد الرئيس
بشار الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية

« لم يَعدُ خافياً على أحد أنّ جوهر العملية السياسية بالنسبة للدول
الداعمة للإرهاب كان منذ البدايات –وعبر مختلف المبادرات– يهدف
لضرب وجود أي مفهوم للوطن عبر ضرب جوهره – وهو الدستور – (...)
وطبعاً عبر ضرب الدستور يتم القضاء على دعامين أساسيين لأي دولة،
الأولى: المؤسسات (...)، أما الدّعمة الأخرى فهي الهوية الوطنية
والقومية والدينية المتنوعة لسورية... »

من كلمة سيادته أمام مجلس الشعب بمناسبة

الدور التشريعي الثاني

بتاريخ 2016/6/7م.

العثمانية الجديدة وتناغها مع الخط الصهيوني المتطرف

د. جابر إبراهيم سلمان

في خطوة استفزازية ترمي إلى تكريس الاستيطان والتهويد في الأراضي العربية المحتلة، ولكسب المزيد من الأصوات في الحملة الانتخابية لموقع رئاسة الحكومة الصهيونية، أعلن رئيس وزراء كيان الاحتلال الإسرائيلي بنيامين نتياهو - وفق ما ورد في تقرير المكتب الوطني للدفاع عن الأرض ومقاومة الاستيطان التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، الصادر في النصف الأول من شهر أيلول للعام 2019م - عن عزمه على ضمّ أراضي من الضفة الغربية وإحاقها بسلطة الاحتلال. وأوضح التقرير أن مخططات الاستيطان التهودية التي كشف عنها نتياهو تتضمن الاستيلاء على أكثر من نصف مساحة الضفة الغربية، وإقامة آلاف الوحدات الاستيطانية في منطقة الأغوار التي تشكّل (22٪) من الضفة، وحصر الوجود الفلسطيني في مناطق صغيرة، تمهيداً لتقويض إقامة دولة فلسطينية مستقلة، وإلغاء حقّ عودة الشعب العربي الفلسطيني إلى أرضه كلياً من الخارطين: السياسية والجغرافية..

وثمة من يرى في هذا الإجراء استكمالاً لـ /صفقة القرن/ التي بدأ بترجمتها الرئيس الأمريكي ترامب أواخر العام 2017م عندما اعترف بالقدس عاصمة أبدية لكيان العدو الصهيوني، ممهداً الطريق لنقل سفارة بلاده من تل أبيب إلى القدس في أيار 2018م..

وبالتوازي مع هذه الممارسات العدوانية لسلطات الاحتلال الإسرائيلي يستمر أردوغان رئيس النظام التركي بجرائمه ضد شعبنا، عبر مواصلة دعمه للإرهاب في سورية والمنطقة، وإيواء الإرهابيين، وتوفير الملاذ الآمن لهم، ضارباً عرض الحائط بالشرعية الدولية وقرارات مجلس الأمن التي تدعو إلى احترام سيادة الدول ووحدة أراضيها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية أو القيام بأي سلوك يعرض أمنها واستقرارها للخطر.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما سرُّ هذا التناغم في الممارسات ذات الطابع العدائي ضد المنطقة وشعبها بين نتنياهو الصهيوني المتطرف وأردوغان العثماني الحاقد الذي يطمح إلى بسط سلطانه واسترداد أمجاد أجداده على المنطقة العربية برمتها؟!

وهل هذا التلاقي بين الخطين: الصهيوني والعثماني الجديد يأتي في سياق تأكيد حقيقة التعاون والتنسيق بين نظام أردوغان في تركيا وسلطات الاحتلال الصهيوني في فلسطين؟!

للإجابة عن السؤالين آنفي الذكر لابد من العودة إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عندما بدأت السلطنة العثمانية بالتربُّح، وتحوّلت إلى ما يُشبه الرُّجُلَ المريض، ففي تلك الفترة التي شهدت آخر سلاطنة بني عثمان استقبل الباب العالي - أكثر من مرّة - مؤسس الحركة

الصهيونية تيودور هرتزل بمراسم بروتوكولية لا تكون عادة إلا للقادة والزعماء والملوك والأباطرة، وجرى في اللقاءات السريّة بين هرتزل والسلطان العثماني تقديم التنازل عن فلسطين - كما تشير بعض المراجع التاريخية - بتسهيل هجرة اليهود إليها، وهو ما بقي طي الكتمان، ولم يتمّ الإفصاح عنه، خوفاً من تحرك الجماهير التي كانت مهياًة للثورة على جلاّديها الذين استمرؤوا القمع والإرهاب بحقّ أبناء شعبنا.

وما يُثبت حقيقة تواطؤ الباب العالي مع ممثلي الحركة الصهيونية بدءً تدفق اليهود إلى فلسطين في أعقاب كلّ لقاء كان يتم بين هرتزل والسلطان العثماني، والاكتفاء بإصدار بيانات الشجب والإدانة والاستنكار لما يجري على أرض فلسطين من هجرة يهودية غير مسبوقة إليها، وكانت بيانات الشجب تلك فقط للظهور أمام الرأي العام أن السلطنة العثمانية حريصة على فلسطين ولا تقبل بالتفريط بها.

من هنا - وبعد العودة إلى أواخر حكم السلطنة العثمانية، وما كان يتم من تعاون وتنسيق بينها وبين قادة الحركة الصهيونية - نستنتج أنّ الممارسات العدوانية التركية - الإسرائيلية اليوم ضد المنطقة وشعبها هي امتداد للتآمر والعدوان الذي كان يتمّ على المنطقة إبان الغزوين العثماني والغربي لها...

والفارق بين الأمس واليوم هو أن قوى الشرّ والعدوان التي كانت تنفّذ بالأمس عدوانها بالأصالة، أصبحت تنفّذ عدوانها اليوم عبر وكلاء عملت على استقدامهم من شتى أصقاع الأرض، وعلى إقامة معسكرات تدريب لهم ودعمهم بالمال والسلاح..

ولكن كما انتصر شعبنا في الماضي على حلف العدوان، وأوقف زحف عدوانه، سينتصر اليوم بسواعد أبنائه من أبطال الجيش العربي السوري الذين يسطرون الانتصار تلو الانتصار على الإرهابيين وعلى رعاتهم وداعميهم حتى كبح جماح الإرهاب واستتصال شأفته عن كل شبر من أرض الوطن، وحتى لا يبقى موطئ قدمٍ للغزاة الجدد من الإرهابيين فوق ترابه الطاهر..

الدراسات

الهوية الوطنية السورية تحديات التشكيل والهال شعبياً*

د. فاروق اسليم ♦♦

مع انكسار المشروع القومي العربيّ مرّة بعد أخرى (نكسة حزيران - كامب ديفيد - اجتياح لبنان - اجتياح الكويت)، وظهور النظام العالميّ الجديد تحوّل السؤالُ الرئيسُ والمُشكّلُ عربيّاً من (لماذا لا نتوحّد؟) إلى سؤال الهوية: (من نحن؟)

وترافق ذلك مع ظهور نزعات وطنية لدى أكثر من دولة عربية في سياق تأكيد خصوصية الدولة الوطنية وتماسكها وتنميتها، ثمّ جاءت انكسارات ما سُمّي بالربيع العربيّ، فكانت وبالأعلى عدد من الدول الوطنية العربية، وفي مقدّمتها ليبيا وسورية واليمن، وسبقها إلى ذلك العراق بعد الاحتلال الأمريكيّ له عام 2003م، فتحوّل السؤال لدى شرائح مختلفة، في عدد من الدول العربية من دائرة التنمية والديمقراطية والمواطنة إلى دائرة الهوية الوطنية: (من نحن؟).

* ألقى هذا البحث في مؤتمر الهوية الوطنية السورية الذي أقامه مركز دمشق للأبحاث والدراسات مداد بدمشق عام 1918.
** عضو اتحاد الكتاب العرب، باحث وأستاذ جامعي في جامعة حلب.

لقد آلت الانكسارات القومية العربية السورية كثيراً، لكونها موئلاً رئيساً للفكر القومي العربي، ثم تلتها انكسارات وانحرافات وطنية سورية، جعلت سؤال الهوية مقدماً على كثير من الأسئلة، وهو سؤال يعاني في سورية انكسارين: قومي عربي، ووطني سوري معاً.

ثمة إجابات تفتيتية متعددة لسؤال الهوية الوطنية السورية، وهي إجابات لا ترجع إلى ما حدث في سورية ابتداءً من عام 2011م فحسب، بل ترجع إلى زمن بدايات تشكيل الدولة الوطنية السورية قبل مئة عام، وإلى ما قبل ذلك مما هو قارٌّ في الوعي الشعبي، من تكوين تاريخي، أنتج هوية يمكن البناء بها وعليها، مع الإقرار بانتفاء القدرة على إغفالها أو القفز فوقها.

إن قراءة الوعي الشعبي للهوية الوطنية مهمٌ جداً لفهم ما كنا عليه، وما نحن عليه، وما يجب أن نكون عليه، على نحو شامل ومؤثر، لأن وعي النخب يبقى قاصراً، إن لم يكن لصيقاً بوعي عامة الناس، من أجل أن يكون علمياً وممتلكاً للرؤيا والوسائل المناسبة لتصويب الوعي الشعبي خاصة، عبر جدل إنساني فاعل بالحدف والإضافة، حذف ما يعوق الاندماج، وإضافة ما يتحقق به الاندماج والعيش المشترك.

وهذه القراءة تطمح إلى تقديم وجهة نظر حول علاقة تشكيل الدولة الوطنية السورية بهويتها في الوعي الشعبي، عبر مساري الانفتاح والانغلاق، وعبر قراءة في وعي الزعامات الشعبوية التي قادت حركة التحرر ضد الانتداب الفرنسي، وصولاً إلى الوقوف عند تحديات مآل الهوية الوطنية الآن.

أولاً: - تحديات التشكيل: الانفتاح والانغلاق

إن تشكيل الهوية الوطنية السورية مرتبطاً تكوينياً بظهور الدولة السورية عام 1918، نتيجة اتفاقية سايكس/بيكو عام 1916. ومن المسلم به أن تشكيل الدولة السورية كان باقتطاعها من محيطها الإقليمي والجغرافي، ومن سياق تكوينها التاريخي العميق، أو لنقل بعبارة أخرى: باقتطاع أطراف بلاد الشام خاصة من قلبها، وهو الدولة السورية الناشئة، وهذا ما فرض على السوريين تحديات عميقة في وعيهم لهويتهم.

إنّ بدايات تشكيل الهوية الوطنية السورية مرتبطة بطبيعة ولادة الدولة السورية، وإنّ العلامة الفارقة والرئيسية لتلك الولادة أنّها صناعية، تمّت بصناعة حدود دولية تحيط بالدولة السورية، وأنّ تلك الحدود لم تكن موجودة قبل.

من الطبيعي أنّ هذه الولادة الصناعية توجب أن يكون تشكيل الهوية الوطنية السورية مؤسساً على تجاوز الحدود الدولية المرسومة، عبر امتدادات، لها وجودٌ طبيعي، واستمرارٌ تاريخي، يُمثّلان تجاوزاً لتصنيع الدولة السورية وفق مقاييس سايكس/بيكو.

إنّ امتدادات الهوية الوطنية السورية المتجاوزة لكيان الدولة الوليدة لها أبعادٌ إقليمية، يفرضها موقعها الجغرافي الممتدّ طبيعياً نحو تركيا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق. إنّ تلك الامتدادات تتجاوز الجغرافية الطبيعية إلى الجغرافية السكانية التي شكّلت عبر تاريخ حضاريّ عريق وعميق، وهذا التشكّل له طابعه الاجتماعي والثقافي، إضافةً إلى طابعه القومي والديني، كما أنّ من المهمّ الإشارة إلى أنّ تلك الامتدادات كانت، وما تزال، ثنائية الاتجاه؛ فهي ليست من الدولة السورية نحو محيطها فحسب، بل هي من المحيط نحو المركز أيضاً.

إنّ ولادة الدولة السورية تمّت عبر إرهابات تشكّل وعي غلب عليه الطابع العربيّ لأمرٍ أبرزها أنّ الأمير فيصل بن الحسين الهاشميّ الحجازيّ المكيّ قدّم عبر توافقات دولية ومحلية ليكون ملكاً للدولة السورية، وأنّ آلية تشكيل هذه الدولة ارتبطت على نحو عميق بحركات وجمعيات عروبية التوجّه، كما ارتبطت بالثورة العربية الكبرى، وبشخصيات غلبَ عليها التوجّه العربيّ المناقض للطورانية، والراغب في الانفصال عن الدولة العثمانية لتحقيق الحلم القوميّ العربيّ.

لقد أعلنت الدولة السورية منذ تشكيلها أنّها تسعى لمأسسة دولة، هويتها عربية، ومن مظاهرها البارزة اسمها (المملكة السورية العربية) ودستورها المؤسس على تلك التسمية، إضافةً إلى ظهور مؤسسات لها طابع عربيّ واضح جداً، وفي مقدّمها المجمع العلميّ العربيّ (مجمع اللغة العربية) والتدريس العالي

للطبّ والحقوق باللغة العربية لا غير، وكان هذا التوجّه العروبيّ طبيعياً ومعبراً عن تكوين عربيّ بارز في الدولة السوريّة، وهو تكوين له عمقه التاريخيّ وامتداده غير المنقطع.

تنازع هذا الحضور العروبيّ مع حضور دينيّ إسلاميّ ومسيحيّ. أمّا الحضور الإسلاميّ فهو امتداد طبيعيّ لوعي واسع وراسخ بالانتماء إلى الخلافة العثمانيّة، وهو وعيٌ بعضه تماهى مع الوعي العروبيّ ليغدو عروبيّاً إسلامياً، وبعضه ظلّ إسلامياً لا قوميّاً، وأمّا الحضور المسيحيّ فكان لدى النخب المسيحيّة خاصّة، وغلب عليه الطابع القوميّ العربيّ المناقض للعثمانيّة وللطورانيّة معاً، لكنّ بعضه كان غير عروبيّ، ومتصلاً على نحو ما بالسعي الأوروبيّ لإعادة تشكيل المنطقة وفق أسس جديدة، مؤسّسة على اتفاق سايكس/ بيكو خاصّة.

إنّ بدايات تشكّل الهوية الوطنيّة السوريّة تُبرزُ سمةً رئيسة لها هي الانفتاح على محيطها لا الانغلاق، وهو انفتاح، سماته الرئيسيّة جغرافيّة، وقوميّة عربيّة، ودينيّة إسلاميّة، مع تنويعات سريانيّة وأشوريّة وكردية وتركمانيّة وجركسيّة وأرمنيّة وغير ذلك من التنويعات التي أنتجها تاريخ عميق ومشارك، ومؤسس على الاندماج لا الانفصال.

كان للاندماج حضور شعبيّ متّصل بالذاكرة الجمعيّة للناس، ولا سيّما ما اتّصل منها بالثقافة العثمانيّة، ولم يكن مسألة وعي نخبة ثقافيّة أو سياسيّة، ولا وعي مؤسسات تنهض به، وتعمل لتعميمه فحسب. إن شعبيّة ظاهرة الانفتاح لا الانغلاق في تشكّل الهوية الوطنيّة السوريّة يعني أنّها نتاج جدل إنسانيّ تاريخيّ طويل، لا يمكن إلغاؤها، أو نفي وجودها.

لكنّ امتياز الهوية الوطنيّة السوريّة تأسيساً بأنّها محكومة بوعي شعبيّ عامّ منفتح وممتدّ خارج حدود الدولة لا يعني وحدة ذلك الوعي وتناغمه، إذ إنّ شعبيّته تضمّر تعدّداً في مستويات وعي الانفتاح والولاء له تبعاً لتعدّد الفئات الشعبيّة بين ريف ومدينة وبادية، إضافة إلى تعدّد المرجعيّات الدينيّة وتنوعها، على نحو يجعل لكلّ مكوّن خصوصيّة في مرجعيّة الانفتاح الأكثر أهميّة

عنده، مع التأكيد على عدم انفلاقه على المرجعيّات الأخرى، وفق متطلبات الاستجابة لتحديّات الهوية.

إنّ وعي النخب السوريّة لتكوين هويّة وطنيّة سوريّة في سياق تشكيل الدولة وتكوّنها لم يرقّ من جهة الذبوع والانتشار والولاء إلى مستوى الوعي الراسخ والفاعل والمؤثر لدى عامّة الناس، وهو وعيٌ كان يتشكّل مع ظهور الدولة السوريّة عبر مخاض الرفض والقبول لتشكيل دولة سوريّة وهويّة وطنيّة سوريّة.

وقد يكون مهماً جداً أن تُشير إلى أنّ طابع تكوين الدولة وتشكيل هويّة شعبها الوطنيّة المتّسمين بالانفتاح خارج حدود الدولة يوجبان الانفتاح داخل حدودها، لكنّ الواقع لم يكن كذلك؛ فالانفتاح بين مكوّنات الهويّة السوريّة داخل الحدود على مستوى الوعي الشعبيّ كان في حال غير حسنة، بخلاف ما كان عليه الحال لدى عامّة النخب الوطنيّة السياسيّة والثقافيّة، لأسباب متّصلة أساساً بثقافة عثمانيّة متعصّبة تجاه كثير من مكوّنات الدولة السكّانيّة، إضافة إلى ضعف وسائل التواصل المجتمعيّ آنذاك بين بعض مكوّنات الهويّة الوطنيّة السوريّة وبعضها الآخر.

ارتبط تشكيل الهويّة الوطنيّة ووعيها في سورية وفي الوطن العربيّ عامّة بظاهرة الاحتلال والانتداب من جهة، وبظاهرة محاربة كلّ منهما من جهة ثانية. وقد اتّخذت محاربة الاحتلال والانتداب طابعاً وطنياً في كلّ دولة، لكنّه طابعٌ منفوح على الجوار بخاصّة، وفق ظروف كلّ قطر وظروف جواره العربيّ (سورية/فلسطين - تونس/الجزائر) أو جواره غير العربيّ (سورية / تركية).

ومهمّ في هذا السياق أنّ موقف السوريين من الانتداب الفرنسيّ لم يكن واحداً، وهذا من الأمور المُسلّم بها تاريخياً، فثمة من ثار ضدّ فرنسا قبل إنذار غورو وقبل احتلال الفرنسيّين العاصمة دمشق، وتمثّل ذلك بانطلاق ثورة الساحل السوريّ بزعامة الشيخ صالح العليّ (1918م)، وبانطلاق ثورة الشمال بزعامة هنانو (1919م)، ثمّ كانت الثورة السوريّة الكبرى بزعامة سلطان باشا الأطرش (1925م).

ومع أنّ بعض النُخب الثقافية والسياسية والدينية قد شارك في هاتين الثورتين غير أنّ تلك المُشاركات لا ترقى إلى مستوى التحدي الحقيقيّ للانتداب الفرنسيّ، بل إنّ بعض النخب وَجَدَتْ في الانتداب وسيلةً للتطوير وبناء الدولة الحديثة، وللدخول في عصر جديد تتجاوز فيه الدولة ما هي عليه لتكون أفضل.

وهذا لا ينفي وطنية تلك النخب الثقافية والسياسية آنذاك، بل يُشير إلى أنّها أُصيبت بصدمة عنيفة، غير أنّها لم تُوقظ لديها وعياً حقيقياً وصائباً بتكوين الذات الوطنية السورية لأمر، منها أنّ هذه الذات لم تكن محققة مؤسّساتياً، أي: لم يكن للدولة السورية الناشئة مؤسّسات تُعبّر عن بُنية عميقة للدولة، توجب الدفاع عنها، ومن ثمّ كان لرفض تلك النخب للانتداب - إن وُجد الرفض - طابع ثقافيّ وسياسيّ غالباً، ولم يرق إلى مستوى التحديّ والمقاومة المسلّحة إلا نادراً.

يُضاف إلى ذلك أنّ شرائح من البيئة الشعبية لم ترى في الانتداب إلاّ ضرباً من استبدال سيّد بآخر، وهذا نتاج ثقافة متوارثة عبر زمن طويل لمقولة إطاعة وليّ الأمر وتعظيم شأنه.

أمّا الاستكانة للانتداب في عدد من المدن السورية فتحمّل مسؤوليته الرئيسة تلك النخب الثقافية والسياسية والدينية التي لعبت دوراً سلبياً جداً على مستوى المواجهة من قبلها، وعلى مستوى بثّ الوعي المناهض للانتداب. وإنّ مثل هذه المواقف تُشير إلى تنوّع وعي السوريين لهويتهم الوطنية في مواجهة الانتداب الفرنسيّ.

ومع ذلك قامت ثورات سورية متتابعة، ابتداء من 1918 حتّى 1927، وكانت الأرياف مجالها الرئيس، وكان الفلاحون مادّتها البشرية الرئيسة. وإنّ الناظر في هذه الثورات ومكوناتها القيادية الرئيسة يلاحظ عليها أنّها ثورات لفلّاحي الأرياف، مع وجود امتداداتٍ قليلةٍ داخل المدن، وأخرى بدويةٍ قَبليّة، وأنّ قيادات هذه الثورات لها طابعُ زعامةٍ شعبيةٍ لا زعامةٍ سياسيةٍ ولا فكريةٍ ولا

دينيّة، عدا استثناءات قليلة، يمثّلها بخاصة الزعيم إبراهيم هنانو، وأنّ قيادات هذه الثورات تنتمي إلى ثقافة تتخلّق من رحم ثقافة تاريخيّة متشابكة (عثمانيّة/إسلاميّة - إسلاميّة/قوميّة عربيّة - إسلاميّة/وطنيّة) توجبّ محاربة الانتداب الفرنسيّ وفقّ وعيٍ بتمييز في الهوية، لا يقبل بالانتداب، لكنّه مضطرب في وعي الذات وفهمها.

إنّ قيادة الزعامات الشعبيّة للثورات المسلّحة ضدّ المستعمر الفرنسيّ أمرٌ مسلّم به، وهو بارز لكلّ مطّلع على شأن تلك الثورات، ويأتي في مقدّمة تلك الزعامات الشعبيّة الشيخ صالح العلي (1883 - 1950م) الذي قاد أوّل ثورة ضدّ الفرنسيّين في الساحل السوري ابتداء من عام 1918 حتى عام 1921، وسلطان باشا الأطرش (1891 - 1982م) الذي قاد الثورة السوريّة الكبرى من عام 1925 حتّى عام 1927.

وإضافة إلى القائدين: العليّ والأطرش وُجدت زعامات قياديّة شعبيّة في مناطق مختلفة من سورية، ومنها عدد من قادة ثورة هنانو، وفي مقدّمتهم الشيخ يوسف السعدون (1888 - 1980م)، ومصطفى حاج حسين (1881 - 1952م) ونجيب عويّد (1870 - 1962م) والشهيد عقيل الإسقاطي (1890 - 1926)، كما وُجدت في دمشق وما حولها زعامات شعبيّة مهمّة، أبرزها الشهيدان: البطل حسن الخراط (1861 - 1925م)، والبطل سعيد عكّاش (1892 - 1941م)، وكان الخراط أمياً⁽¹⁾، وكذلك كان حال سعيد عكّاش⁽²⁾.

ولمّا كان تشكيل الهوية الوطنيّة السوريّة إشكاليّاً في بدايته، وما يزال يحمل هذه الإشكالات، فإنّ قراءة أصل القضية الإشكاليّة مهمّ جداً في إدراك الحال، والتوجّه نحو المأل، ولهذا أجد من المهمّ جداً أن نتعرّف إلى معالم وعي

(1) ينظر: شهيندر - عبد الرحمن، ص 62.

(2) ينظر: العطار - عدنان، ص 128.

الهوية الوطنية السورية لدى تلك الزعامات الشعبية لأنّ وعيها متصلٌ مباشرةً بوعي عامة الناس، ومعبرٌ عن همومهم الوطنية والشعبية.

ثانياً: وعي الهوية الوطنية لدى الزعامات الشعبية السورية

إنّ وعي الزعامات الشعبية السورية التي قادت النضال الوطني ضدّ الفرنسيين، بين عامي 1918 و1927 خاصةً، كان مؤسساً على وحدة السوريين، عبر ثلاثة مكونات رئيسية، هي: المكون الديني الإسلامي، والمكون القومي العربي، والمكون الوطني السوري، مع ملاحظة أنّ ذلك الوعي كانت تشوبه أحياناً موروّثات عثمانية تصطدم مع ما يجمع بين هذه المكونات التي تشكل مجتمعة ومنفردة بدايات تشكيل وعي الهوية الوطنية السورية.

1 - المكون الديني الإسلامي: وهو مكون رئيس للهوية الوطنية السورية، لأنّه نتاج إرث تاريخي كان ممتداً وراسخاً في النفوس قبل تأسيس الدولة السورية؛ فقد كانت تصوّرات الهوية "تتقارب لتشير إلى القاعدتين الأساسيتين للهوية، وهما الأرض والإسلام، وهما أساس تأكيد الذات الثقافى ضمن نظام اجتماعي تقليدي، وهو نفسه النظام العثماني"⁽¹⁾.

وكان لهذه التصوّرات حضور واضح في وعي الزعامات الشعبية السورية، وهذا طبيعي، لأنّ تلك الزعامات كانت تُعبر بوعيها عن تكوين تاريخي وثقافي وروحي أصيل وواسع في البيئة التي تعيش فيها، مع ملاحظة أنّ ذلك الوعي كان منسجماً مع المكونات الدينية الأخرى في سورية، إضافة إلى أمر آخر مهم جداً، وهو أنّ الدوافع الوطنية لتلك الزعامات كانت أيضاً "قومية، إلّا أنّها صيغت بعبارات دينية"⁽²⁾ إسلامية، لتكون تلك الصياغة بمثابة الأيديولوجية العقديّة المناهضة للانتداب الفرنسي.

(1) المعوشي - نادين، ص 253.

(2) شوكت - آصف، ص 178.

ويؤكد ذلك أن الشيخ السعدون في مذكراته⁽¹⁾ أدان من يوالي الفرنسيين، لأنه بذلك يخرج عن صف المسلمين، ويكون أشدّ ضرراً من الفرنسيين، كما أبرز في الوقت نفسه استيائه من الخونة الذين استخدموا الإسلام وسيلة للخداع والإيقاع بالثوار، وصبّ جام غضبه على الأشياخ، وسألهم عن عدّهم في ترك الجهاد، وعن الذريعة التي سوّغت لهم الانزواء في البيوت وعدم محاربة الانتداب الفرنسي.

كان هذا الوعي الديني سمة بارزة في وعي الزعامات الشعبية للثوار السوريين، مع ملاحظة أنّ هذا الوعي بلغ لدى بعض عامّة الثوار أحياناً درجة التعصّب على غيره من المكونات الوطنية السورية، وإلى ذلك أشار الباحث آصف شوكت بقوله: "والملاحظ أنّ الحماس الديني أعطى الثوار أحياناً دافعاً إلى درجة التعصّب، ولم يكن زعماء الثورة يجيزون هذا الاتجاه، وهذا واضح من قيام الشيخ صالح العليّ في خريف 1920 بردّ المنهوبات من السقيلية إلى أصحابها بنفسه، وأن يُعاقب الذين تجرّؤوا على فعل ذلك"⁽²⁾.

وللشيخ السعدون في مذكراته إشارة إلى موقف مشابه في أثناء حديثه عن بعض الطماعة الذين دخلوا بيوت بعض المسيحيين في إدلب، واستلبوا بعض الأمتعة، وفرّوا، والناس مشغولون بحرب العدو ومتابعته، الأمر الذي أوجب السخط من الثوار وغيرهم على هؤلاء السلاية⁽³⁾. ويضاف إلى ذلك وجود إشارة إيجابية أخرى في مذكرات السعدون، وهي تقديم الثوار سبعمئة رأس من الغنم لأهل السقيلية وغيرهم.

(1) للشيخ يوسف السعدون مذكرات مهمة تؤرّخ لثورة الشمال ولموقعه القيادي فيها، إضافة إلى مجمل نضاله ابتداءً من عام 1919 حتى عام 1945، علماً أن المذكرات كتبت في صيغتها النهائية بين عامي 1953 و1955، وهي قيد التحقيق والنشر من قبلي بتكليف من أسرته.

(2) شوكت - آصف، ص 179.

(3) ينظر: المرجع السابق، ص 179، وفيه إشارة إلى هذا الموقف في مذكرات السعدون.

ونجد مثل هذا الوعي الديني الشعبي لدى الثوار في دمشق وما حولها، فقد ذكر الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مذكراته أن مراسل (فرانكفورت غازت) قال: "إن الأحياء المسيحية التي تحلّى عنها الفرنسيون في دمشق قد سلمت من النهب بفضل زعماء المسلمين"⁽¹⁾، وأضاف في هذا السياق: "وجاء في البرقيات العمومية: أن الشائع أن الثوار لم يقوموا بما يؤخذون عليه، بل إن حسن الخراط زار محلات المسيحيين، وهدأ روعهم قائلاً لهم: إنكم إخواننا"⁽²⁾.

ومن اللافت في هذا السياق أن قائد الثوار في جبل الزاوية المجاهد مصطفى حاج حسين، قد مرّ في طريق عودته من أنطاكية بقرب قرية (القنية)، فعلم بوجود قوة فرنسية فيها. وباستياء أهل القنية منهم، فتعاون مع بعضهم، وهاجم القوة الفرنسية ليلاً، وأجبرها على الاستسلام ومغادرة القرية.⁽³⁾

إن وعي الزعامات الشعبية السورية للمكوّن الديني للهوية كان وعياً وطنياً في جوهره، لكونه غير متعصب وغير منغلق، لكن ذلك لا ينفي وجود حالات تعصب في الوعي لدى بعض الثوار، وهو تعصب مؤسس على ثقافة عثمانية موروثية، وقد عملت الزعامات الشعبية السورية الثورية على مناهضة ذلك التعصب بسلوك يناقضه انفتاحاً وعيشاً مشتركاً.

2 - **المكوّن القومي العربي**: هو مكوّن رئيس للهوية الوطنية السورية، فهذه الزعامات كانت في الغالب تنتمي نسباً وفق وعيها إلى قبائل عربية معروفة، ويؤكد حضور هذا البعد القومي العربي في وعي تلك الزعامات أن ثورة الشيخ صالح العلي، وهي الأقدم، كانت بالاتفاق مع الحكومة العربية بدمشق.

ومن الملاحظ أن دوافع الثوار كانت "في المناطق الثائرة كافة وبشكل جلي قومية سياسية"⁽⁴⁾، ومن هذا الوعي للمكوّن القومي العربي ما نجده بارزاً

(1) شهبندر - عبد الرحمن، ص 57.

(2) المرجع السابق، ص 57.

(3) ينظر: افضيل، ص 47- 51. وينظر لمثل ذلك: الزاقوت - عطا الله، ص 76- 80.

(4) شوكت - آصف، ص 177.

جدًا في مذكّرات الشيخ السعدون؛ فهو يفتخر بثورة الشمال لأنها ثورة عربيّة، وأفرادها هم أساتذة كلّ تائرٍ في الشرق الأوسط عامّة، وفي العرب خاصّة، حتى الأتراك أنفسهم اقتدوا بثورة الشمال، وعنها أخذوا لأنها متقدمة على ثورتهم، كما برز في مذكّرات السعدون الاستياء من الملك فيصل الأوّل، ثمّ من أخيه الأمير زيد لكونهما لم يفعلوا ما يوجب عليهما انتماءهما إلى العرب، بل فاض كلُّ منهما العدوّ للحصول على منصبٍ يتسلمه أو على مادة تدرُّ على جيبه!

ومن اللافت عند السعدون استيائه من اتّهام ثورة الشمال بالعمالة للأتراك، فراح يُسوِّغ تعاملهنا معهم لا مع العرب بعدم وجود حكومة عربيّة في الجزيرة العربيّة ذات سيادة يلجأ إليها، وأنّ الأتراك أقربُ الأمم والشعوب من الحدود السوريّة الشماليّة، وهذا يعني أنّ العرب في وعيه أمةٌ، والترك أمةٌ أخرى⁽¹⁾.

هذا الوعي القوميّ العربيّ لدى السعدون مشابه لوعي معاصريه من زعامات الثوار السوريّين الذين عدّوا أنفسهم جزءاً من الحكومة العربيّة التي تشمل سورية كلّها⁽²⁾، وكان هذا الوعي متأثراً جداً بظهور الدولتين: السوريّة والتركيّة؛ فظهور الدولتين وفق اعتبارات قوميّة أحدث تحوّلاً في الوعي، بالانتقال من الإسلاميّ إلى القوميّ، فقد رأت الباحثة نادين المعوشي أنّه مع تأسيس هاتين الدولتين "استمرّت الأرض كقاعدة ورمز عن هويتها الوطنيّة، لكنّها أصبحت عربيّة في سورية، وتركيّة في تركيا"⁽³⁾.

3 - المكوّن الوطنيّ السوريّ/ الأمة السوريّة: إنّ وعي الزعامات الشعبيّة السوريّة لتشكيل الهوية الوطنيّة مؤسّس على الإقرار والاعتراف بوجود الدولة السوريّة،

(1) يذكر في هذا المجال أنّ الشيخ السعدون حكمت عليه بالإعدام الحكومة التركيّة لمعارضته سلخ لواء إسكندرون، فعاد إلى سورية، وشارك في أحداث عام 1945 في كفر تخاريم وإدلب وجسر الشغور، ومات ودفن في مدينة سلقين، القريبة من موطنه الأصليّ في لواء إسكندرون.

(2) شوكت - آصف، ص 178

(3) المعوشي - نادين، ص 253.

بحدودها المعترف بها دولياً، وضمنها لواء إسكندرون؛ ونجد ذلك بارزاً في نداء سلطان باشا الأطرش الذي أعلن فيه قيام الثورة السورية الكبرى، التي كان من مطالبها وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً، وقيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة، وبسحب القوى المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش محلي لصيانة الأمن⁽¹⁾.

ونجد مثل هذا الوعي لوجود الدولة في مذكرات الشيخ يوسف السعدون؛ فقد ذكر فيها الأراضي السورية والبلاد السورية وبلاد السوريين نحو أربعين مرة، كما ذكر حدود الدولة السورية أكثر من عشر مرات على نحو عام (الحدود السورية) أو على نحو محدد (الحدود السورية الشمالية) أو (الحدود السورية - التركية).

إن الإقرار بوجود الدولة قاد أحياناً إلى وعي بوجود أمة داخل حدود تلك الدولة؛ فقد ذُكر السوريون في مذكرات السعدون بصفتهم أمة مرة واحدة على نحو صريح، وأكثر من ثلاثين مرة في سياق يُراد به السوريون؛ كقوله عن الثورة السورية: إنها ثورة أمة، وسورية وحدة لا تتجزأ ولا تُقسّم، وإن ثوارها هدفاً واحداً هو جلاء الفرنسيين عن البلاد السورية بكاملها، وهؤلاء الثوار فقدوا رشدهم بسبب تفاهم الأتراك مع الفرنسيين ضد الثورة السورية.

ومع أن الشيخ السعدون أغفل في مذكراته الإشارة إلى أسبقية ثورة الشيخ صالح العلي في الظهور غير أنه ذكر الشيخ صالحاً في ثلاثة مواضع، على نحو يُبرز تضافر الثوار آنذاك، ووحدة أهدافهم تجاه الانتداب الفرنسي⁽²⁾، كما

(1) هذا بعض ما تضمّنه نداء سلطان باشا الأطرش الذي دعا فيه إلى الثورة على الانتداب الفرنسي. ينظر: السفرجلاني - محي الدين، ص 154.

(2) أمّا الأول فيذكر فيه السعدون نقلاً عن نجيب عويّد قائد الثورة في كفرتخاريم أن الشيخ صالح العلي جاء إلى إبراهيم هنانو يطلبُ خرطوشاً، وأن إبراهيم بك أرسله إلى تركيا،
==

أشار السعدون إلى ثورة سلطان باشا الأطرش، وإلى أسفه لأنّ جهوده للاتصال بالأطرش للحصول على مساعدته بتقديم السلاح لم تكلّل بالنجاح.

إنّ هذا الوعي الوطنيّ المقيّد بحدود الأمر الواقع - وهو وجود دولة لها حدود معترف بها دولياً - رافقه وعيٌّ بأنّ هذه الحدود مصطنعة، ومغايرة للتكوين التاريخي، لكونها تُحدث قطيعةً مع الامتداد الإنسانيّ للسوريين خارج حدود دولتهم الوليدة، وهو امتدادٌ له طابعان: دينيٌّ وقوميٌّ، وممّا يُشير إلى ذلك محاولة "ثورة الشيخ صالح العليّ وثورة هنانو الحصول على دعم من تركية بدعوى إحياء التضامن الدينيّ بين الأتراك والعرب ضدّ العدوّ المشترك"⁽¹⁾.

ومن الراجح أنّ المكوّنين: الدينيّ والقوميّ لم يتّسعا إلى درجة الطغيان على المكوّن الوطنيّ، المؤسّس على حدود الأمر الواقع الذي فرضه الانتداب الفرنسيّ، وأوجب بناء عليه سلوكاً تحرّريّاً مناضلاً، يغلب عليه الطابع الوطنيّ.

ثمّة مؤشرات كثيرة تدلّ على وعي وطني فائق، ومنه تشكيل الفوج الملي عام 1920 في مدينة حماة، "وقد أُطلق هذا الاسم على الفوج الذي انخرط فيه مجاهدون من جميع الطوائف، من حماة وحمص وطرطوس وجبله وبانياس والحفة واللاذقية و.. إلخ"⁽²⁾.

فاستلم منها مع جماعة من الثوّار ستّين صندوقاً من الخرطوش، ثلثهم لثورة القصير، والثلث الآخر إلى كفر تخاريم، والثالث إلى الشيخ صالح العليّ، إضافة إلى مئتي بندقية، تُقسمُ ثلاثة أثلاثٍ، وأمّا الموضع الثاني فهو قيام بعض ثوّار الشمال بالاستيلاء على قطعان أحد المتعهدّين التابعين للانتداب في حلب، وتقديمهم بعضاً ممّا استولوا عليه للشيخ صالح العليّ، وأمّا الموضع الثالث فيذكر فيه الشيخ السعدون وهو متألّم اسم القائد الفرنسيّ الماكر أندريه الذي أخدم ثورة الشيخ صالح العليّ. وينظر لاتصال الشيخ صالح العليّ بالزعيم هنانو: البيونس - عبد اللطيف، ص 187 - 188.

(1) شوكت - آصف، ص 178.

(2) البيونس - عبد اللطيف، ص 131.

إنّ قراءة وعي الزعامات الشعبوية السورية التي قادت النضال إلى التحرر من الانتداب الفرنسي تُبرز لنا تناغماً وانسجاماً واضحاً بين ثلاثة مكونات الهوية الوطنية الرئيسية؛ ونمثل لذلك بنداء سلطان باشا الأطرش الشهير الذي أعلن فيه الثورة السورية الكبرى على الفرنسيين، فقد استُهلّ بقوله: "إلى السلاح إلى السلاح، يا أحفاد العرب الأمجاد"، وهذا خطاب عروبي واضح، أتبعه بخطاب يحمل صبغة ثقافية إسلامية واضحة تمثلت بمصطلح الجهاد؛ في قوله: "هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال. فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم". إنّ سلطان باشا الأطرش الذي افتتح نداءه بـ "يا أحفاد العرب" عاد ليقول للمخاطب نفسه: "أيها السوريون" ثم قال: "أيها العرب السوريون ... تذكروا أنّ يد الله مع الجماعة، وأنّ إرادة الشعب من إرادة الله"⁽¹⁾.

إنّ نداء سلطان باشا الأطرش يُعبّر عن وعي لتكوين الهوية الوطنية السورية يتوّحد فيه الديني والقومي والوطني، وينفي عن ذلك الوعي أيّ تعصّب ديني أو طائفي، وهو ما نجده بارزاً في نداء آخر لسلطان باشا الأطرش، ومنه قوله: "يا بني وطني ... ليس هناك درزيّ وسنيّ وعلويّ وشيبيّ ومسيحيّ، ليس هناك إلّا أبناء أمة واحدة، وتقاليد واحدة، ومصالح واحدة، ليس هناك إلّا عربٌ سوريون"⁽²⁾.

وقد كان لهذا التناغم بين ثلاثة مكونات الهوية أثرٌ بارز في منظومة القيم المجتمعية الوطنية السورية التي سادت المجتمع، نراه في مثل وصف السعدون في مذكراته لرجال حيّ المشاركة في مدينة حلب بأنهم ما زالوا محافظين على شهامتهم العربية وغيرتهم الدينية.

إنّ قراءة ثلاثة المحاور السابقة (الديني الإسلامي، والقومي العربي، والوطني السوري) تُبيّن أنّ وعي زعاماتنا الشعبوية لهويتهم الوطنية في زمن بدايات

(1) ينظر للنداء تاماً: السفرجلاني - محي الدين، ص 153 - 155.

(2) الزاقوت - عطا الله، ص 75.

تشكيل الدولة السوريّة كان محدّداً جغرافياً بحدود الدولة السوريّة، ومن ضمنها لواء إسكندرون، وأنّ هذا الوعي للذات كان مؤسساً على الإقرار بوجود دولة سورية محتلة من قبل الانتداب الفرنسي، وأنّ مقياس الانتماء إلى الهوية الوطنيّة السوريّة والولاء لها يرجع أساساً إلى محاربة الاحتلال الفرنسيّ بالسلاح أو بالدعم المادّي، وهذا ما جعل بدايات تشكيل الهوية الوطنيّة السوريّة وفق وعي تلك الزعامات مؤسساً على مبدأ محاربة العدوان الأجنبيّ، انطلاقاً من مرجعيّة دينيّة إسلاميّة جهاديّة، وقوميّة عربيّة، ووطنية سوريّة، تتمثّل في الولاء والمحبة للوطن سوريّة؛ فقد سأل جنرال فرنسيّ الشيخ صالح العليّ، عن الدافع إلى ثورته على الفرنسيّين، فكان جواب الشيخ في غاية البساطة والعمق: "إنّه حبّ الوطن"⁽¹⁾.

كما أنّ تأسيس هويّتنا الوطنيّة السوريّة على الانفتاح على البعدين القومي العربيّ والدينيّ الإسلاميّ، قد اغتنى بتنوعات أخرى راسخة في المجتمع السوريّ، دينيّة تتمثّل بالمسيحيّة بخاصّة، وقوميّة تتمثّل بالأكراد والشركس والأرمن وغيرهم، ولا سيّما أصحاب الوجود الأقدم تجدرّاً في سوريّة كالآشوريّين والسريان.

كانت حركات التحرّر من الانتداب الفرنسيّ شاملة وعميقة في المجتمع السوريّ، وهذا لا ينفي وجود من تصالح مع الانتداب أو تأمر معه، وهذا الأمر لا يقتصر على مكوّن أو أكثر من مكوّنات السوريّين، بل كان لذلك حضور في كلّ المكوّنات، وكان تعامل الزعامات الشعبيّة مع الذين تأمروا على ثوراتهم متشابهاً، غير أنّ وعيهم لما يواجهون كان متفاوتاً، ويمكن الإشارة هنا إلى ما في مذكرات السعدون من أحكام سلبية عامة تجاه بعض المكوّنات (طائفية - قوميّة - حضريّة - بدويّة)، غير أنّها كانت وليدة حادثة ما مؤلمة في سياق محاربة الانتداب الفرنسيّ، سرعان ما نجد لديه نقيضها في سياق مواقف وطنيّة محدّدة.

(1) اليونس - عبد اللطيف، ص 227.

ومن اللافت أنّ مثل هذا الوعي السلبيّ كان في الأرياف غالباً، ولا سيّما التي لا يعيش فيها غير مكوّن واحد، وكان ذلك من أسباب ضعف التعارف بين مكوّن وآخر، في مثل تلك البيئات آنذاك، ممّا يصنع حدوداً في الوعي بين مكوّن وآخر.

كانت الزعامات الشعبوية السورية صادقةً في سلوكها الوطنيّ وفي جهادها ضدّ المحتلّ الفرنسيّ، وفي وعيها لهويتها الوطنيّة، كما كانت صادقة في إخلاصها لانتمائها إلى سورية وولائها لها على نحو واضح ومنفتح نحو العرب والمسلمين، غير أنّ وعي فئة من الثوار لمكوّنات الهوية الوطنيّة السوريّة كان ضبابياً تجاه عددٍ منها، لكونه مؤسساً آنذاك على ثقافة عثمانية منغلقة في الدائرة التي يتعصّبون لها، مع انفتاح يسير على حالات فردية لمن يُتعصّب عليهم، وهو انفتاح رهين بالموقف من المحتلّ الفرنسيّ لا غير؛ فمن يحارب فرنسة وطني، وينتمي بعمق إلى سورية ويواليها، ومن يتعامل مع الانتداب الفرنسيّ، ويعمل عنده، يفقد انتماءه وولاءه الوطنيّ، أي: يفقد هويته الوطنيّة السوريّة.

ثالثاً: تحديات مآل الهوية الوطنيّة نحو تناغم الانفتاح والانغلاق

خلال قرنٍ من التحوّلات الثقافيّة والسياسيّة والتعليميّة والاجتماعيّة والعلميّة تحقّقت في سورية عمليّة تناغم واسعة بين مكوّنات المجتمع السوريّ، وهي تسيّر نحو تشكيل هويّة عبر جدل إنسانيّ شامل على الأرض التي تتشكّل عليها الدولة.

لقد حدث في سورية تحوّل واسع نحو مدنيّة المجتمع والدولة فاق جواره العربيّ على نحو ظاهر، غير أنّ ذلك التحوّل المدنيّ لم ينجح في تنمية بعض مكوّنات ما قبل المجتمع المدنيّ، مع أنّ الاختراق لها مدنياً قد حصل، بفضل التعليم وازدياد أقتية التواصل والانفتاح في المجتمع السوريّ.

إنّ تنامي تشكيل الهوية الوطنيّة خلال قرن ظلّ منفتحاً على التكوين العربيّ والإسلاميّ، لكن هذا الانفتاح كان مغايراً لما كان عليه الحال في مطلع القرن العشرين؛ وذلك لأنّ العلاقة بين العربيّ والإسلاميّ غلب عليها طابع

الانسجام في البدايات، ثم أثرت الإيديولوجيات الحزبية في صنع هوة واسعة بين التيارات: القومي العربي والديني الإسلامي.

وقد شهدت فترة التسعينيات في سورية حراكاً إيديولوجياً وثقافياً رسمياً ومجتمعياً مدنياً نحو ردم الهوة ما بين القومي العربي والديني الإسلامي عبّر مقولة تكامل العروبة والإسلام في تشكيل الهوية العربية، وفي سياقها الهوية الوطنية السورية بصفاتها جزءاً من الهوية العربية⁽¹⁾، وفي ذلك عودة إلى البدايات، بدايات تشكيل الدولة السورية والهوية الوطنية السورية قبل خلخلتها بالإيديولوجيا.

إضافة إلى ذلك كان التوجه الرسمي في سورية ينحو إلى تقريب الرؤى إيديولوجياً بين الطوائف وكذلك بين الإسلام والمسيحية. لكن هذا التوجه الرسمي كان يضمن حكماً بوجود حدود فاصلة بين تلك المكونات. وهذا أمرٌ مبالغ فيه، أو ليس صائباً، لأن التباعد بين تلك المكونات كان في مجمله بين الإيديولوجية القومية العربية والإيديولوجية الدينية الإسلامية، وليس بين المكونات الشعبية، ولا في وعي هذه المكونات لوجودها المنسجم وطنياً في دائرة الوطن السورية.

وإذا ما كان التوجه نحو التقريب بين العروبي والإسلامي هو عودة نحو البدايات النقية فإن مركزية الصراع مع العدو الصهيوني هي ضربٌ من تلك البدايات أيضاً، وهو ضرب متحوّل من محاربة الانتداب الفرنسي إلى مقاومة المحتل الصهيوني، وهذا التحوّل منسجم تماماً مع انفتاح الهوية الوطنية السورية منذ التأسيس على العروبي والإسلامي.

وتأسيساً على ذلك نجد أنّ الهوية الوطنية السورية بقيت منذ بدايات تكوينها منفتحةً عروبياً وإسلامياً، ومحاربةً العدوان الأجنبي عليها، وعلى ما

(1) ينظر لهويتنا العربية والقومية: اسليم - فاروق، ص 118 - 1131.

يُشكّل امتداداً لها في فلسطين خاصة، غير أنّ ما يُشكّل في هذا المجال أن يكون ذلك وحده مقياساً للانتماء والولاء والانسجام سورياً، لكونه مقياساً وحيداً، وهذا ما يجعله في دائرة ما يعوق انسجام بعض مكونات المجتمع الوطني السوري مع بعضها الآخر على نحو من الأنحاء.

ومن المؤسف أنّ نجاح الهوية الوطنية السورية بالانفتاح خاصّة خارج حدود الدولة لم يرافقه نجاح مماثل في الانفتاح المقبول إيديولوجياً وثقافياً داخل الدولة، وهذا يعني أننا بحاجة إلى انفتاح داخلي أوسع وأشمل لتحقيق الانسجام عبر تأكيد مدنيّة الدولة والمجتمع دستورياً، وتنمية ذلك ثقافة وسلوكاً، لتسود المواطنة العادلة بين كلّ مكونات المجتمع السوري.

تخوض سورية منذ سنوات حرباً عنيفة ضدّ قوى ظلامية داخلية وخارجية، تستهدف الدولة والشعب عبر تحطيم المنجز من الهوية الوطنية لتفتت الدولة والمجتمع، بوسائل مختلفة، في مقدّماتها إحياء إثنيات تفتيتية على نحو مرعب. إنّ هذه الحرب تمثّل مخاضاً حقيقياً لولادة دولة سورية جديدة، نريد لها أن تكون من رحم سورية القائمة، وليس بالانقلاب عليها.

ومن البارز لكلّ متابع للشأن السوري أنّ لإشكالية الهوية الوطنية السورية أهمية كبيرة في وعي الصراع في سورية وعلى سورية، وأنّ الملامح العامّة لهذه الإشكالية تكمن في تغليب الانفتاح خارج الحدود على الانفتاح والاندماج داخل الحدود، ولا سيّما لدى الفئات الشعبية التي تتساق وراء مواقف وعواطف آنية، أسهمت بعض النخب المنحرفة وطنياً وقومياً ودينياً في الترويج لها.

إنّ معالجة أيّ ظاهرة إشكالية تتصل بتشكيل الهوية ثقافياً واجتماعياً ودينياً لا يكون إلاّ بالإقرار بوجودها، مع العمل الجادّ على تهذيبها بالحذف والإضافة، حذف مظاهر التعصّب والانغلاق، وإضافة مظاهر الانفتاح والعيش المشترك.

إنّ ما نحتاج إليه سورياً يكمن في الإقرار بانفتاح الهوية الوطنية السورية خارج حدود الدولة، ولكن في سياق تقديم السوري على غيره، وفي ذلك يكمن

التناغم والتوافق على الأولويات بين التيارات الكبرى، ومنها القومي العربي، والقومي السوري، والقومي الكردي، ولن يتحقق ذلك إلا بإعلاء شأن المواطنة ثقافة وسلوكاً.

نحن بحاجة إلى تغليب الوطنية، لتكون مركزية لكل ولائ وانتماء، على ألا تمنع تلك المركزية الانفتاح خارج الحدود، ولا تصطدم به، مع التأكيد على عدم التعارض مع ما يعوق هذا التوازن بين مركزية الوطنية السورية وانفتاحها العروبي والإسلامي والإنساني، وإن نجاح النخب الثقافية والسياسية والعلمية والمجتمعية المدنية في تحقيق ذلك مرتبط كثيراً بتعرفها إلى الوعي الشعبي في عمقه وتنوعه وهويته وسلوكه.

المصادر والمراجع

- 1 - اسليم -فاروق، هويتنا العربية والقومية، مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، شتاء 1998 -1999، عدد مزدوج: الرابع والخامس، السنة الثانية.
- 2 - افضيل -عبد اللطيف وافضيل -فاخر، المجاهد مصطفى حاج حسين وثورة جبل الزاوية، دار المجد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2003.
- 3 - الزاقوت - عطا الله، أضواء على الثورة السورية الكبرى (1925 - 1927)، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2000.
- 4 - السفرجلاني - محي الدين، تاريخ الثورة السورية، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1961.
- 5 - السعدون -يوسف، مذكرات الشيخ يوسف السعدون، (نسخة خاصة مرقونة على الآلة الكاتبة).
- 6 - شوكت -آصف، الثورات السورية 1918 -1921 في المنطقتين الساحلية والشمالية الغربية: دراسة تحليلية سياسية وعسكرية، الأوس للنشر، دمشق، 2002.
- 7 - شهبندر -عبد الرحمن، الثورة السورية الوطنية: مذكرات الدكتور عبد الرحمن شهبندر، تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب، ط2، وزارة الثقافة، دمشق، 1993.
- 8 - العطار -عدنان، ثورة الحرّية في المنطقة السادسة بدمشق 1925 - 1936: وادي بردى والمهاجرين والصالحية، دار سعد الدين، دمشق، 1991.
- 9 - المعوشي -نادين، نظرة جديدة إلى ثورة الشمال من خلال مذكرات يوسف السعدون، (الندوة التكريمية للزعيم إبراهيم هنانو 2008، إعداد وتقديم محمد خالد عمر)، الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة، دمشق، 2009.
- 10 - اليونس - عبد اللطيف، ثورة الشيخ صالح العليّ، ط2، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

الهوية الثقافية

د. عيسى درويش ♦

الهوية بمعناها الضيق هي معرفة الإنسان لذاته وتعريفه بما هو.. فهو ارتباطه باسم وعائلة ومذهب أو دين لم يختره بنفسه.. أما الهوية بمعناها الأشمل فهي انتماء الأفراد إلى الجماعة سواء كانت أمة أو قوماً أو مجتمعاً..

وقد نتج عن تفاعل الإنسان مع محيطه بوساطة اللغة والمصالح وما ترتبه الفطرة عليه من ميل للتعايش مع غيره، وتبادل المصالح واتساع دائرة الانتماء إلى أسرة وعشيرة وقبيلة، ثم إلى أمة، وبعد ذلك إلى دولة. ومن خلال تطوره السياسي دخل في تكوين سلوك معين ولغة معينة وتراكم معرفي أدى إلى ثقافة مشتركة ميزت سلوكه الجمعي وعززت شعوره بالانتماء إلى الجماعة، مما جعل له هوية ثقافية تجسدت من خلال اللغة بوصفها وعاء للفكر وتعبيراً عن الوعي الإنساني، بإدراكه ما حوله من طبيعة وبشر، وما يتحرك بذاته من عواطف واحتياجات بيولوجية وعرزيرية ساهمت في تكوين ثقافة ميزته عن غيره

* عضو اتحاد الكتاب العرب، باحث وشاعر من سورية.

وعبرت عن تراكمه المعرفي خلال تطورات من حقبة التاريخ اعتمدت مجموعة من الوسائل والنظم والسلوكيات الاجتماعية، مما دعا علماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس والاجتماع وفلاسفة السياسة إلى دراسة هذه الظواهر والتعبير عنها كل وفق اختصاصه. وفي القرن التاسع عشر وحتى القرن الواحد والعشرين ظهرت عشرات التعاريف للثقافة، ولكنني سأذكر بعضاً منها، بما يخدم الغاية من هذه المداخلة.

تُعرف الثقافة بما يأتي (1) في معجم لاروس.. (الثقافة هي مجمل المظاهر والملامح المادية والإيديولوجية التي تميز مجموعة إتيية أو قومية أو حضارة ما - بالمقابل مع مجموعة قومية أو إتيية أخرى- وهي تشمل مجموعة مؤشرات مثل (اللغة والعادات والتقاليد واللباس وسلوكيات التعامل مع الأفراد والمجتمع في مراحل التاريخ).. أما تعريف تابلور للثقافة فهي كل مركب يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والعادات والقرارات التي يكتبها الفرد في المجتمع..

وأما تعريف اليونسكو فيقول: (الثقافة هي مجمل الخصائص الروحية والمادية والفكرية والحميمية التي تميز مجتمعاً أو مجموعة اجتماعية، وتضم الفنون والآداب والعلوم وأسلوب الحياة والقوانين ومنظومة القيم والتقاليد والمعتقدات).

ولن نخوض في مجال التعريفات لأن ذلك ليس موضوعنا ولكننا نشير إلى أنه حصلت تطورات على النظرة للثقافة من خلال النظرة الاختصاصية لعلماء الاجتماع والنفس من جهة، ولعلماء الأنثروبولوجيا والاقتصاد من جهة أخرى، وذلك بسبب ما طرأ من تقدم علمي واقتصادي واجتماعي في القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، ونرى تعريفاً لأرموند في عام 2007 يقول الآتي:

(الثقافة مجموعة المعارف والخبرات والتقاليد الخاصة بمجموعة بشرية لحضارة ما تنتقل من جيل إلى جيل آخر بالتواصل وليس وراثياً، وترتبط بجزء كبير منها بالسلوك الفردي، وهي تشمل مظاهر عديدة من الحياة الاجتماعية (عادات - تقاليد - أعراف - قيم - معتقدات). وتبقى الذهنية الفردية للفرد حصيلة ما اكتسبه من معارف.

ونرى في هذا التعريف توافقاً بين نظرة علماء الاجتماع من جهة وعلماء الأنثروبولوجيا من جهة أخرى. أما إدوار (3) هيريو فقد قال: (الثقافة هي ما يبقى في ذاكرتنا عندما ننسى كل شيء)..

وقال عنها محمد عابد الجابري(4):

(الثقافة هي ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتطورات والقيم والرموز والإبداعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو ما في معناها بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والعطاء). ثم تابع قائلاً:

(إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت للإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يعمل).

أما الدكتور عبد الله عبد الدائم فقد عرّف الثقافة قائلاً:

(الثقافة هي جملة السمات والملامح الخاصة التي تميز مجتمعاً معيناً أو زمرة اجتماعية معينة سواء أكانت روحية أو مادية أو فكرية أو عاطفية).

مما تقدم نخلص إلى أن الثقافة هي أوسع من العلم بخصائصه المادية، وهي تشمل أكثر من الجوانب الروحية، وهي أشمل من الآداب والفنون.. إنها كما ذكرنا كلُّ مركّبٍ من كل هذه الأشياء معاً.

ونضيف إلى أن الثقافة قد تميزت عن الحضارة، فالحضارة هي التجسيد المادي للثقافة خلال تراكماتها المادية، ولكن أحاسيس الفرد داخل الجماعة وسلوكه وتطورات العاطفية وإبداعاته الفكرية والجوانب الروحية فيه والسلوك الاجتماعي والاقتصادي الذي يسلكه خلال عيشه قد جعل الثقافة تشمل الأبعاد الروحية والمادية للإنسان خلال مسيرته التاريخية.

الهوية الثقافية العربية:

يرى الباحث صبحي غندور أن (الثقافة العربية) كلغة كانت موجودة قبل الدعوة الإسلامية، لكنها كانت محصورة بالقبائل العربية وبمواقع جغرافية محدّدة، بينما العروبة كهوية انتماء حضاري ثقافي بدأت مع ظهور الإسلام ومع ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم ونشر الدعوة الإسلامية بوساطة العرب.

ولي ملاحظة على رأي الباحث غندور، فاللغة العربية كانت لغة معروفة قبل الإسلام وقد أكدها الشعر الجاهلي وأثار طه حسين في الأربعينيات من القرن الماضي ثورة في العالم العربي حول كتابه **في الشعر الجاهلي**. وهناك الكثيرون الذين قالوا: إن هذه اللغة الجميلة التي كان يراها المستشرق جاك بيريك لغةً إيحائيةً ومجدّها كلٌّ من **زكي الأرسوزي** و**ساطع الحصري**، وعدّها كلٌّ منهما حاملاً أساسياً من حوامل الثقافة العربية، ولم يكن من الممكن أن تكون كذلك إلا من خلال تراكم معرفي وثقافي استمر زمنًا طويلاً حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من هذا الاستيعاب اللفظي والإيحائي بصورة نزولها في القرآن الكريم.. وإذا كان العرب في صحرائهم الواسعة لم يشيدوا المدن والآثار كما فعل المصريون واليونان والرومان إلا أنهم عرفوا في اليمن والشام في حضارة حمير وسبأ ولدى الفساسنة المسيحيين حضارة عريقة وثقافة في نظم الدولة والري وتنظيم الأنهار والحدائق، بما يوحي بأن ثقافتهم قد تراكمت عبر التاريخ، وتفاعلت مع ثقافات أخرى مصرية وبابلية ويونانية ورومانية وتعززت بانتشار الإسلام، إذ أعطى العرب شعوب المنطقة دينهم ولغتهم، وأخذوا منهم حضارتهم التي تعاضمت زخمتها في عهد المأمون العباسي، مما شكّل ما اصطلح على تسميته بالحضارة العربية الإسلامية التي وصلت حتى أوروبا عن طريق الأندلس.

العوامل المكونة والحاملة للهوية الثقافية العربية:

من خلال التعاريف التي أوردناها ننتقل من العام إلى الخاص، وإلى جانب ما ذكرناه من مضامين التعاريف في المقدمة فإن هناك عوامل أساسية وعوامل فرعية تعدُّ من حوامل هذه الهوية الثقافية ونذكر من أهمها:

1- عامل اللغة:

فلما كانت اللغة وعاء الأفكار وأداة الإفصاح عن مشاعر الفرد من حزن وفرح، وخبزاناً لتراكم الإرث المعرفي لتعاقب الأجيال وما يحتويه السلوك الفردي والجمعي من تجسيد لهذا التطور بأشكاله الثقافية والإبداعية، وتشكيل الشخصية من خلال العادات والتقاليد والأعراف ومنظومات القيم ودور الفرد في المجتمع ووضع الرجل والأنثى واحتضان اللغة العربية لتاريخ العرب من معارك

وفتوحات وأدب وشعر - وخاصة بعد أن أصبح القرآن الكريم بإعجازه اللغوي حافظاً لهذه اللغة - جعل اللغة العربية لسان أكثر من (300) مليون عربي ويمارس التعامل معها حوالي (1000) مليون مسلم حول العالم. وقد تحدثت بها شعوب كثيرة دخلت الإسلام وتخلت عن لغتها المحلية لصالحها ومن دون إكراه كسكان بلاد الشام والرافدين ومصر ووادي النيل وشمال أفريقيا، وتكتب بها لغتها شعوب أخرى كما هو في إيران، ولولا إصرار كمال أتاتورك مدفوعاً بنوازه الأوروبية في قطع الصلة بين الأتراك واللغة العربية بتحويل اللغة التركية المكتوبة بالعربية إلى الأحرف اللاتينية ربما كان تاريخ المنطقة قد تغير. ولن نخوض في تأثير الاحتلال العثماني للبلاد العربية على انحطاطها ثقافياً واقتصادياً من خلال الاستعلاء والاضطهاد والانزياحات السكانية الكبيرة واضطهاد الأقليات ومحاولات التتريك وغيرها، وفشلت كل هذه المحاولات أمام قوة اللغة العربية وإصرار الناطقين على التمسك بها والكتابة فيها، وقد لعب العرب المسيحيون دوراً كبيراً، نذكر لكل من بطرس البستاني وناصيف اليازجي وجرجي زيدان وغيرهم الدور الكبير في قيام النهضة العربية في القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين.

ولقد أعطى كل من المفكرين زكي الأرسوزي من خلال كتابه "العبرية العربية في لسانها" وغيرها، وساطع الحصري في كتابه "العروبة أولاً" أولوية اللغة في الهوية الثقافية، وجعلوا من فلسفة الأخلاق والمدنية وممارسة التربية والتعليم وتربية الأجيال وسيلة لترسيخ مفاهيم العروبة والهوية الثقافية العربية.

2 - التاريخ :

يقول قسطنطين زريق: (ما تتميز به أمة من الأمم هو شخصيتها التي هي نتاج لغتها وحضارتها وتطورها التاريخي).

ويشكل التاريخ عاملاً مهماً وحاملاً أساسياً للهوية الثقافية من حيث إنه يشكل الذاكرة الجمعية للأمة وذاكرة لها.

يقول د. عيسى الشماس (1) ما يأتي:

تشكل الهوية الثقافية للأمة ذاكرة الإنسان، فالإنسان بلا ذاكرة لا يستطيع أن يعيش أو يتفاعل مع دائرة إنسانية أوسع تهدف إلى إسقاط ذاته المتمثلة في هويته القومية.. ويقول شكيب رسلان:

فإنه ما يجب أن يخلد في الصدور قبل السطور، وأن يكتب في الحدق قبل الورق، أن حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمة ونموها.

وأنا أقول: إن التاريخ ذاكرة الشعوب فإذا فقدت تاريخها فقدت ذاكرتها، ونحن ندرك أهمية التاريخ في ثقافتنا على الرغم من سلبيات مؤرخي السلطة وانحيازهم إلى رأي السلطان، ودورهم في تشويه تاريخ الأمة، وخاصة مؤرخي السيرة والحديث، مما سبب الكوارث للأمة عبر تاريخها وحتى اليوم ومنذ انتهاء الخلافة الراشدة في سنة 32 للهجرة..

ويرى إسماعيل الملمح⁽¹⁾ أن: (الهوية لا تتفصل عن التاريخ ولكن يصار إلى الحفاظ على الهوية عبر الأطوار التاريخية، ولا بد من وجود ثوابت من دونها ليكون الأمر تغييراً في الكينونة)، والشعب كالكائن الحي يتطور ولكن لا يتغير ويجب المحافظة على الخصوصية القومية.

وقد رأى عدد من المفكرين وعلى رأسهم قسطنطين زريق وميشيل عفلق دور التاريخ في الهوية القومية، متأثرين بالفلسفة المثالية التي جاء بها الفيلسوف الألماني هيغل وغيره في ألمانيا وأوروبا.

ولكن كما نحذر من تضليل المصطلحات نحذر من تضليل التاريخ، وخاصة من الذين يمزجون التاريخ بالتفوق العرقي والعصبوية القومية، مثل النازية والفاشية وبعض الحركات العربية التي بالغت في عصبيتها إلى درجة الشوفينية، وخاصة في اختراع القوميات الثانوية على حساب ثقافة الانتماء إلى الحضارة العربية، وحاولوا تشويهها باتهامها بأنها خشبية وجامدة واستعلائية بدوافع التقسيم والتجزئة، متأثرين بالطروحات الغربية بعد حملات الاستعمار التي بدأت في القرن التاسع عشر وما زالت تمارس ضد العرب بعد قيام "إسرائيل" تحت شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان والحكم الرشيد وحقوق المرأة وغير ذلك. ونحن نفهم ضرورة التطور والتجديد والانفتاح على ثقافات الآخرين، ولكن من خلال الحوار المتكافئ وليس بالهيمنة والإخضاع وتذويب الثقافة الوطنية والقومية لشعبنا العربي وتجزئته خدمة لمصالح الصهيونية والعملة الأمريكية.

3 - العامل الديني:

لا شك بأن الإسلام المحمدي قد أعطى العرب ثقافة روحية هائلة مكنتهم من خلال الإيمان بها في عهد الرسول (ﷺ) وخلفائه من بعده وممارستهم لها في الشريعة بقوة واندفاع من بناء دولة إسلامية مترامية الأطراف، ونقلت هذه الرسالة إلى شعوب أخرى غير عربية وغير مسلمة، وتم نتيجة الانصهار حيناً وتمازج الثقافات حيناً آخر ترجيح هوية ثقافية أداها اللغة العربية وروحها الإسلام، وظلت هذه القوة تتنامى وتتطور حتى جاء معاوية خليفة للمسلمين وجعل الحكم فوق الشريعة، وخالف النص القرآني في حكم الشورى إلى خلافة وراثية ملكية أدت إلى انحراف كبير توارثه العباسيون والعثمانيون من بعدهم.

وكان الإسلام سواء في النصوص القرآنية أو في سلوك الرسول (ﷺ) مع الأقليات سواء كانت دينية أو عرقية، يتجلى ذلك بوجود شخصيات من أقرب الصحابة إليه مثل سلمان الفارسي الذي كان يخاطبه أبشر سلمان فأنت منا آل البيت.. وصهيب الرومي، وبلال الحبشي مؤذنه وواضع الوثيقة التي تتعلق بنصاري نجران ورسائله إلى النجاشي ملك الحبشة وهجرة عدد من الصحابة إليها، كما تجلى لاحقاً بالوثيقة العمرية التي أعطاها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنصاري القدس، وبروز عدد من المبدعين من الصابئة والسريان المسيحيين في الحضارة العربية الإسلامية.

ولكن قيام بعض الحكام المسلمين -بفتاوى من رجال الدين - باستباحة دم بعض المنتمين إلى مذاهب إسلامية أو آراء مخالفة لآراء السلطان تسبب بقتل الصحابي حجر بن عدي، والحسين بن علي وموت الحسن مسموماً، وتعاقب القتل حتى شمل عبد الله بن الزبير، وضرب الكعبة بالمنجنيق واستباحة المدينة المنورة، وظل التاريخ الديني للخلفاء والأمراء بعيداً في الحكم والسلوك والملك مخالفاً لجوهر العقيدة الإسلامية السمحاء كما جسدها القرآن والحديث الصحيح، مما أدى إلى أن ينظر الكثير من كتاب النهضة إلى عدّ الدين عاملاً مؤثراً في القيم الروحية ولكن ليس العامل الذي تقام على أساسه الدولة الأمة بما يمليه التطور التاريخي والتعدد العرقي، وقد ظهر ذلك في كتابات الحصري والأرسوزي. وتم التركيز على العامل اللغوي والتاريخي ومنظومة العيش المشترك والمصالح

المشتركة وحق الإنسان في اختيار عقيدته، ولم يتكرر الحصري(2) لفضل الإسلام في الحفاظ على هوية الأمة العربية، كما أن علي عبد الرازق في مؤلفه "الإسلام وأصول الحكم" دعا إلى فصل الدين عن الدولة.

4 - العامل الاقتصادي:

برز هذا العامل بعد تطور الاقتصاد الأوروبي ودوره في تشكيل الدولة القومية وتنامي التطور الصناعي والتسابق لاستعمار الدولة والشعوب بالقوة لفتح الأسواق والحصول على المواد الأولية وظهور الطبقات في أوروبا، مما أدى إلى قيام ثقافة طبقية بين العمال وثقافة برجوازية لدى أصحاب المشروعات والإقطاعيين.. وكذلك ظهور الماركسية ونشوء الأحزاب الشيوعية، وخاصة بعد قيام الثورة البلشفية عام 1917 وقيام الاتحاد السوفياتي.

أما ساطع الحصري فكان يرى أن العامل الاقتصادي ليس من المقومات الأساسية للقومية؛ لأن الحياة الاقتصادية المشتركة لا تسير إلا بعد تكوين الدولة القومية.. ولكن التطورات الأخيرة وخاصة الوحدة الأوروبية على أساس اقتصادي.. وعجز الدولة الوطنية في البلاد العربية عن تحقيق منجزات ذات شأن على الصعيد القطري أو الوطني دعا بعض المفكرين إلى التركيز على العامل الاقتصادي في بناء الدولة الأمة الموحدة وتوظيفه في خلق القوة التي تفرض احترامها في مجتمع الدول. وعلى سبيل المثال إن الولايات المتحدة لم تبرز كقوة سياسية وعسكرية إلا بعد نهضتها الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية 1945.

المخاطر على الهوية:

تتعرض الهوية القومية لأمتنا العربية لعدد من الأخطار، منها داخل الأمة ومنها من خارجها، ولعلنا نوجز ما هو من داخلها بالآتي:

1 - تنامي النزعة الوطنية القطرية والمغالاة في محاولة بعضهم تحويل الدولة الوطنية إلى الأمة الدولة كما يحدث في بعض الأقطار العربية، وذلك بالذهاب بعيداً عن الدعوة للانتماء للعروبة والتصلب منها بوصفها فكراً قومياً خشبياً غير قابل للتطور.

- 2 - الإغراءات التي تقدم لهذه الدول من دول مستفيدة من شراكة الأمة، معادية لأي نهوض قومي، وعلى رأسها الولايات المتحدة وبعض دول الغرب الأوروبي و"إسرائيل".
- 3 - المضي في تصنيع هويات جديدة على حساب الهوية الأم الجامعة للعرب، وهي اللغة والتاريخ والعوامل الروحية والثقافية ووحدانية المصالح والمصير المشترك.
- 4 - تنامي النزعات الدينية والقومية والمذهبية بالإضافة إلى الفساد والاستبداد.

أما العوامل الخارجية فهي:

- 1 - العولمة بأشكالها المختلفة (الاقتصادية والثقافية والإعلامية) ومحاولات اختراق الثقافة وخلق ثقافة هجينة بدوافع لا تقوم على أسس منطقية مثل الأصالة والمعاصرة وعجز اللغة وزيف التاريخ والعجز عن مسايرة الأمم المتقدمة بالعلوم والتكنولوجيا والاتصالات إلخ.
- 2 - الاختراق الثقافي والإعلامي والاقتصادي عن طريق شبكة معقدة من الوسائل تقوم فيها الشركات متعددة الجنسيات ومراكز الأبحاث التي تديرها وتوجهها أجهزة المخابرات والعملاء المرتبطين بها في الدول المتلقية.
- 3 - استغلال شعارات طرحتها الولايات المتحدة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بنشر الثقافة الأمريكية، وهيمنة الشركات العابرة للحدود على اقتصاديات الشعوب والدول الأخرى تحت شعار العولمة الاقتصادية وصراع الحضارات، بدلاً من حوار الثقافات، وقد كانت طروحات **صموئيل هانتغتون** في صراع الحضارات وإن تخطى عن نظريته لاحقاً وكذلك **فوكوياما** في كتابه نهاية التاريخ، وكانت الأدوات هي البنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي والشركات متعددة الجنسيات، وتمركز رأس المال، وقوة الدولار، وحماية ذلك بمنظومة تدخل عسكري جاهزة، ووسائل دبلوماسية ناعمة وصلبة لتحقيق هذا الشعار.. واستخدام الحصار الاقتصادي بالعقوبات المخالفة لقواعد القانون الدولي وسيادة الدول.

4 - تنامي النزاعات الانفصالية في الوطن العربي من أقليات عرقية عاشت مئات السنين في كنف الدولة الواحدة، واستعربت في غالبيتها، وجمعتها مع إخوانهم ثقافة الانتماء في لغة وقيم روحية وفنون وآداب وعادات وتقاليد تكاد تكون واحدة.

5 - الوقوع في تضليل التاريخ وتزييفه، وضرب الذاكرة الجمعية للأمة، وتغريب الفرد عن هويته ووطنه تحت شعارات زائفة مثل: عالمية الثقافة، ووحدة المصير الإنساني، وإلغاء القوميات والهويات الوطنية، وتهميش اللغة، وتسريب لغة المهيمن القوي إلى قلب اللغة الأم وتحتيتها لاحقاً، وعدم قيام حوار متكافئ يحقق المصلحة المشتركة لحوار الثقافات من أجل التقدم والتطور. وبالإمكان بحث كل بند من هذه البنود، لولا ضيق الوقت المخصص لبحث كل عامل من هذه العوامل، بما له من آثار قاتلة وما له من آثار إيجابية إذا توفر حوار متكافئ بين الثقافات.

الخاتمة والنتائج:

1 - يتضح مما سبق أن الهوية الثقافية هي الحامل الأساس والحامي للأمة من الانهيار والتفكك بمقدار ما تتميز من خصوصية، فلا يعني أننا لا نؤمن بالتطور والحوار والمناقشة بل ندعو إلى ذلك، ولكن ما نرفضه هو التهميش والظلم والانزياحات السكانية الكبرى التي خلقت واقعاً مفروضاً لإحلال شعب مكان آخر كما حصل في فلسطين، وخلق "إسرائيل"، وكذلك ما حصل في السودان جنوباً، وما يحصل الآن وما حصل في سورية خلال عقود سابقة من هجرة عشرات الآلاف من الأكراد من دول مجاورة وإزاحة السكان الأصليين، والدعوات لإقامة كيانات انفصالية عن الوطن الأم، وما يحصل من تشجيع للأخوة الأمازيغ في شمال أفريقيا.

وكذلك تنامي النزاعات الدينية خاصة بعد ما يسمى بالربيع العربي ودفع الإسلاميين للحكم في المغرب وتونس وليبيا ومصر والحرب على سورية وفي العراق ونمو الإسلاموية التكفيرية كالوهابية التي ذهبت بالإسلام إلى حد التكفير والقتل للمسلمين والمسيحيين على السواء، ولم تطلق طلقة واحدة باتجاه "إسرائيل".

وبقدر ما تقوى هذه الهوية الثقافية معززة بوسائل تعليم حديثة تجاري العصر وتبعد عن أسلوب الحفظ والتلقين، تستطيع أن تحدث ثورة في التعليم ومناهجه على مستوى المدارس بمراحلها والجامعات في كل تخصصاتها.

2 - لا بد من إدراك أهمية الإعلام في التأثير على الرأي العام ومحاولات التضليل الإعلامي وغسل الأدمغة، ولا بُدَّ من إعلام يتجاوب مع العصر وقادر على الصمود من خلال إشاعة احترام الفكر والحق في الاختلاف والحوار، وتشجيع وسائل الإعلام الخاصة والعامة في الكتب والمجلات والإعلام الإلكتروني وغيره من الوسائل الحديثة.

3 - لا بُدَّ من إقامة الدولة الوطنية الحديثة، دولة كل المواطنين، ضمن دستور يضمن العدالة والمساواة تحت سقف الوطن.

4 - لا بُدَّ من مجتمع ديمقراطي يقوم على المساواة بين الرجل والمرأة، ويضمن حق الاختلاف والحوار وتعدد الأحزاب ونشر الصحافة ومكافحة الفساد، وإعلاء قيم الأمة، والانفتاح على العالم، وإقامة الاقتصاد القومي المتطور، والحكم الرشيد، ونشر مبادئ العدالة للجميع.

5 - لا بُدَّ من فصل الدين عن السياسة بوصف الدين شأنًا فردياً يتعلق بالإنسان مع الخالق من دون وصاية من أحد. فالدين لله والوطن للجميع، وهذا لا يعني أننا نتخلى عن القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية واحترام النفس الإنسانية التي جاءت بها الأديان السماوية، بل هي من صميم عقيدتنا الفكرية والثقافية ومنظومة الأخلاق النبيلة التي تربيها علينا.

6 - إقامة دولة القانون والحكم الرشيد والتنمية المستدامة التي تعدُّ الثقافة حاملاً أساساً في كل البنود المشار إليها مع التركيز على الاستفادة من أداة المعرفة والثورة التكنولوجية بوصفها عملية استثمار في الإنسان لصالح المجتمع ككل ووسيلة للربط بين عناصر المجتمع في ظل الربط بين الإنسان والتنمية.

إن الأمة العربية أمام منعطف تاريخي يشد فيه التآمر والضغوط بكل أنواعها لطمس فكرة العروبة والأمة الواحدة والدولة الوطنية القومية الجامعة لكل أبنائها.

ويبقى الأمل معقوداً على النخب الفكرية المؤمنة بالهوية الثقافية والروحية الجامعة للأمة ودورها في قيادة الجماهير للخلاص من أزمتها الراهنة وبناء النهضة الحديثة.

مراجع البحث:

- 1 - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1989.
- 2 - الموقف الأدبي - د. أحمد بلال، العدد 564، اتحاد الكتاب العرب - دمشق.
- 3 - الثقافة والتربية في مواجهة العولمة - د. عيسى الشماس - منشورات اتحاد الكتاب العرب / 2012 سلسلة الدراسات 14.
- 4 - الموقف الأدبي - اتحاد الكتاب العرب عدد 565 عام 2018، عبد الوهاب المصري.
- 5 - إسماعيل الملحم: جدل الثقافة والسياسة في الفكر القومي - اتحاد الكتاب العرب - سلسلة الدراسات 7 - دمشق 2012.
- 6 - الهوية الثقافية - صبحي غندور - (محاضرة عن الإنترنت).
- 7 - الفكر السياسي - نجيب غزاوي - العدد الثالث 2017 - مساهمات العرب المسيحيين في الحضارة العربية - اتحاد الكتاب العرب / دمشق.
- 8 - الفكر السياسي - علي دياب - العدد 63 / 2017 - مقال العلمانية ص 9 وما بعدها - اتحاد الكتاب العرب.
- 9 - محمد عابد الجابري - بنية العقل العربي / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت 1986.
- 10 - الهوية - الإسلام - العروبة - التونسية - د. سالم البيض، مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت 2009.
- 11 - إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر - أطروحة دكتوراه - د. حسام الدين علي مجيد / مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 2010.

الاستشراق الغربي والمشروع الصهيوني

د. أكرم الشلي ♦

يصنف ظهور المشروع الصهيوني - عملياً ورسمياً - في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ضمن التعبيرات البارزة عما وصل إليه الغرب في مخططاته إزاء الوطن العربي. ولئن كان الغرب قد سخر الكثير من إمكانياته الفكرية والسياسية والثقافية في خدمة مصالحه الذاتية في إطار حركة التوسع الأوروبية، معتمداً الاستشراق كوسيلة لا تقل أهمية عن الأدوات الأخرى في التعرف إلى الشعوب والبلدان الواقعة في منطقة البحر المتوسط، فمن الملاحظ أيضاً أن الاستشراق الأوروبي كان رافداً غزيراً يضاف إلى مصادر الإفادة الصهيونية من الغرب ودوائره الاستعمارية، لإنجاز الخطوات المتتالية من بناء الكيان الصهيوني.

* الاستشراق.. نظرة على المفهوم:

ينطوي الاستشراق على طلب الآخرين للمعرفة المتعلقة بالشرق عندما حدد الأوروبيون الشرق على أنه واحد من النواحي الجغرافية والثقافية والاجتماعية، مع تقسيم معين للواقع الإنساني، يوحى ضمناً بهوية صانع مفهوم الشرق.

♦ باحث وكاتب، عضو جمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب / سورية.

في المستوى التاريخي والعلمي والسياسي نظر الغرب إلى الشرق على أنه مجال حيوي لنشاطاته وهيمنته. وطرح الغرب علاقاته مع الشرق من موقع التفوق للسيطرة عليه. وكان في طليعة الذين قصدوا الشرق، كموضوع للمعرفة، وكמידان للنشاط العملي، شخصيات غربية من الخاصة، بهدف التعرف على المواقع المحتواة أو المرشحة للاحتواء تحت المظلة الغربية. وتنبئ صفات هؤلاء المهتمين بشؤون الشرق الأوسط، عن عدد من الدوافع والأسباب الكامنة وراء ظهور واستمرارية عملية الاستشراق. وهناك من يقدم الدافع الديني على غيره بتعليل الحروب الصليبية وآثارها، وحركة الإصلاح الديني ونتائجها. ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرية، وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية ومن ثم الإسلامية. ومن جهة أخرى رغب المسيحيون الأوروبيون في التبشير بدينهم بين المسلمين، فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم إلى العالم الإسلامي. والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار، فمكّنهم، واعتمد عليهم في بسط نفوذهم على الشرق. لكن الاتجاه الغالب حول أسباب الاستشراق يدل على وجود دوافع استعمارية.. كالموقع الجغرافي وأهميته واكتشاف الثروات الباطنية وعلى رأسها البترول مبكراً).

إذا بدأ الاستشراق بمحاولات فردية في مراحل الأولى، ولكنه ابتدأ بشكل رسمي اعتباراً من صدور مجمع فيينا الكنسي عام 1312م، بتأسيس عدد من جامعات العالم، كما اتسمت العملية الاستشراقية الأوروبية، بوجود نزعات متباينة في البحث، فمن الجمع والترجمة والتصنيف إلى التحليل والاستنتاج، ونلمس حضوراً للنظريات اللاهوتية والإيديولوجية، بالإضافة إلى بواعث خطيرة للمواجهات بين الغرب وبين العرب والمسلمين⁽¹⁾.

لذلك ضمن غالبية الأعمال الاستشراقية الأوروبية نلاحظ التركيز على الآتي:

1 - انحطاط الشرق من خلال عزل الظاهرة الدينية عن التطور الاجتماعي، وربطها بعقلية الشرقي وذهنيته الخاصة.

2 - حشر العرب أمام أحد خيارين، إما أن يظلوا أبناء لهذا الإسلام على أساس أنه على نقيض مع التطور، وإما أن يتطوروا ولن يكون ثمة إسلام⁽²⁾.

(1) دور الاستشراق في صراع الحضارات. المنتدى الإسلامي 1991. فرزات القطان. دار النشر. المنتدى، ص 91.

(2) المرجع السابق، ص 100.

إن نظرة دقيقة إلى طبيعة العملية الاستشراقية "دافعها، مناهجها، أهدافها" تُبيِّن تخلي الاستشراق عن حدود تحصيل المعرفة الخالصة. فقد مهدت أعمال هؤلاء المستشرقين الطريق الواسعة لاساسة أوروبا وقادتها العسكريين للقيام بحملات استعمارية مفتوحة النطاق في المنطقة العربية، حيث عمل كثيرون منهم في خدمة حكوماتهم الاستعمارية في المنطقة. كما برز دور المستشرقين في خدمة الاستعمار الغربي بجلاء منذ بدايات المرحلة الإمبريالية في أواخر القرن 19، وازداد الدور مع قيام الدول الغربية بالتوسع شرقاً نحو المنطقة العربية. ولم تنحصر الفائدة التي قدّمها الاستشراق ضمن النطاق الاستعماري الغربي المباشر، وإنما شملت هذه الفائدة نطاقاً فرعياً يخص التوجهات اليهودية الصهيونية...

فمن الملاحظ أن حركة الإصلاح الديني البروتستانتية في القرن السادس عشر انطوت على إتاحة الفرصة لهوض اليهودية القومية، عبر التغيرات اللاهوتية التي جاءت بها، ومن أبرزها:

- الترويج لفكرة أن اليهود أمة مفضلة، وتأكيد ضرورة عودتهم إلى فلسطين.
- إعطاء وزن كبير للغة العبرية باعتبارها اللسان المقدس واللغة التي أوصى الله بها لشعبه.

- ازدهار دراسة "الكابالا" وما يرتبط بهذا من ظهور مناخ روحي وديني وثقافي يتسع للتغيرات الحرفية وللقراءات التأويلية للكتاب المقدس⁽¹⁾.

هذه المسائل وغيرها أوجدت أرضاً مناسبة لنمو الصهيونية الدينية. وساعد العامل الديني فيما شهده عصر التنوير بعد ذلك من محاولات عقلانية الطابع، وقد استهدفت هذه المحاولات نقل فكرة العودة اليهودية إلى فلسطين، إلى حيِّز التفسيرات العلمية، حيث استفاد المشروع الصهيوني من الاستشراق الأوروبي من خلال الخدمات العلمية التي قدّمت للصهيونية لقيام "إسرائيل" فوق أرض فلسطين.

وبوصول النشاط الاستشراقي الاستعماري إلى مرحلة متقدمة وخطيرة في آن في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ظهر في بريطانيا نموذج جديد للاستشراق اتخذ لنفسه اسم استكشاف، وأدى دوره من خلال هيئة متخصصة دعيت

(1) حوار الاستشراق - أحمد الشيخ - القاهرة 1999 - ص 31 - الناشر: المركز العربي للدراسات.

صندوق... استكشاف فلسطين. وتُعدّ هذه الهيئة بشؤون فلسطين من جانب "الأثار اللغة، والناس والعادات، طبوغرافيا الجيولوجيا والعلوم الطبيعية... إلخ". فضلاً عن صدور اعترافات صريحة حول إسهام هذا الصندوق في إيجاد مرتكزات مادية للمشروع الصهيوني، وعن اعتماد اعتبارات سياسية علمية يتعذر اجتزاؤها من التوجه الاستراتيجي البريطاني العام نحو المنطقة العربية. وفي صلب هذا التوجه كانت المحاولات البريطانية الرامية إلى تنمية الاستيطان اليهودي في فلسطين.

اليهود الصهاينة من جانبهم كانوا يدركون حجم الدور الذي اضطلع بتأديته هذا الصندوق، في مساعدة الصهيونية ودعاتها، على الماضي في تأسيس المشروع الاستيطاني، وخاصة بالنسبة للدعاة المنتمين إلى جماعة أحياء صهيون في بريطانيا.

إن الهوية لصندوق استكشاف فلسطين هي هوية هيئة صهيونية في طويتها، علمية ودينية في ثوبها، استعمارية في مهمتها العامة، مما يعني أنه لا قيمة لأي عمل استشراقي من هذا القبيل في المنظور الغربي، ما لم يُلبّ المصالح الاستعمارية، مع الأخذ بعين الاعتبار إتاحة الفرصة ضمنها لإيجاد عائدات صهيونية خاصة.

وفي هذا المجال لا بد من الإشارة إلى أن غالبية العاملين ضمن الاستشراق الأوروبي، لديها نزوع ملموس نحو المزاوجة بين محورين:

الأول: اشتراك المستشرقين اليهود مع غيرهم في تناول العرب والإسلام.

الثاني: تقدّم المستشرقين على غيرهم في التركيز على الإرث العبري القديم، وعلى إحياء الثقافة اليهودية، وتسليط الأضواء على المدونات اليهودية في بلاد العرب والإسلام.

إن أشهر المستشرقين اليهود منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم 2019 هم:

- سولومون فويك - وهو مستشرق فرنسي يهودي بارز في تاريخ الفلسفة اليهودية.
- أرمينوس فامبري - وهو مستشرق ورحالة يهودي هنغاري، قدّم خدمات هامة لهرتزل والصهيونية مقابل مبالغ مالية تعطى له.
- جنتس جولد تسيهر - وهو مستشرق يهودي مجري، سيد الباحثين الأوروبيين في الشؤون الإسلامية الدينية والروحية.

- يعقوب بئرث - مستشرق ألماني يهودي، أتقن اللغة العربية، وله ولدان كانا من أخطر غلاة الصهيونية ودعاتها.
- ريتشارد غوتهل - مستشرق إنكليزي يهودي صهيوني، كان متحمساً لدعوة هرتزل، كما كان رئيساً لاتحاد الصهيونيين الأمريكيين.
- جوزف هوروفيتش - مستشرق ألماني يهودي، كان عضواً في مجلس إدارة الجامعة العبرية في القدس.
- ماكس مايرهوف - مستشرق ألماني يهودي، كان طبيباً، أقام في القاهرة، وعُرف كأحد أبرز الباحثين الأوروبيين.
- دافيد يانت - مستشرق ألماني يهودي، تخصص في الدراسات العبرية، وعمل مساعداً في أكاديمية العلوم اليهودية.

باول كراوس - مستشرق يهودي، سافر إلى فلسطين من براغ (هنغاريا)، وكان من مؤسسي جماعة شتيرن الإرهابية، ومات منتحراً⁽¹⁾..

ولئن كانت الحقائق تثبت أن الاستشراق في أوروبا الشرقية ينأى عموماً عن إنتاج مواقف عدائية ظاهرة حيال المنطقة العربية، فإن ثمة حقائق أخرى تبين أن الاستشراق الغربي قد أسهم في إيجاد أو تعزيز المفاهيم والرؤى السلبية تجاه هذه المنطقة. بعد الحرب العالمية الثانية وجدت الولايات المتحدة نفسها في الموقع الذي كانت بريطانيا وفرنسا قد أخلّتا، ومنذ ذلك الحين تمحور النشاط الاستشراقي الأمريكي حول السبل التي تتيح للولايات المتحدة بسط هيمنتها على المنطقة العربية والعالم الإسلامي. وأصبح كل ما يطلب إلى الاستشراق أن يؤديه هو مساعدة المؤسسة الأمريكية على إنجاز تطلعاتها في الهيمنة على مقدرات الشرق. ومن سمات الاستشراق الأمريكي هو انخفاض عمل الاستشراق إلى عمل استخبارات في الولايات المتحدة، حيث تتغذى من القنوات الآتية:

1 - التقارير والدراسات التي تعدها مراكز ومؤسسات الأبحاث العاملة في الميادين الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.

(1) صناعة الكراهية بين الثقافات - دار الفكر 2008 - ص 85 - علي بن إبراهيم (تونس).

- 2 - الندوات والحلقات البحثية التي تعقدها المؤسسات الأمريكية المختصة.
- 3 - إرسال بعثات دراسية إلى المنطقة.
- 4 - العمل الاستخباري المباشر.
- 5 - الكتابات التي تظهر في المجالات العلمية المتخصصة المعنية بشؤون الشرق الأوسط⁽¹⁾.

ولقد أولى المستشرقون المعاصرون في الولايات المتحدة عناية فائقة لدراسة الأوضاع القائمة في المنطقة العربية منذ قيام "إسرائيل" وحتى الآن، وذلك في إطار تجنيد هؤلاء المستشرقين والعملية الاستشراقية الأمريكية إجمالاً لتلبية احتياجات السياسة الأمريكية وتطلعاتها في المنطقة. كما احتل الاهتمام بـ"إسرائيل" مكانة خاصة في الاستشراق الأمريكي المعاصر، وذلك انطلاقاً من الدور الوظيفي وأهميته الذي تؤديه في تنفيذ الاستراتيجية الأمريكية. فانصبت غالبية نشاطات المستشرقين الأمريكيين في مجالات الأبحاث الصراعية، باتجاه تعزيز المواقع الإسرائيلية على جبهة المواجهة مع العرب، إلى جانب محاولة تسويق الأفكار والمقولات السياسية التي تعتمدها "إسرائيل" والصهيونية. ومما تقدم نُلمس في عداد توجهات المستشرقين المعاصرين وجود محاور ثابتة للمعالجة البحثية لشؤون المنطقة والصراع ومكانة "إسرائيل"، ومن أبرزها:

- 1 - التركيز على أهمية "إسرائيل" الاستراتيجية بالنسبة لأمريكا والغرب بتحريض المؤسسات الأمريكية على الاستجابة إلى حاجات "إسرائيل" العسكرية وتمكينها من التفوق على البلاد العربية.
- 2 - النظر إلى "إسرائيل" على أنها واحة الديمقراطية الوحيدة في العالم، وإظهار التحالف الإسرائيلي الأمريكي، كما لو أنه نابع من التزام أخلاقي تجاه دولة صديقة.
- 3 - التنسيق مع "إسرائيل" سواء في السياسة الإسرائيلية العليا، أو في المواقف والأحداث اليومية والجارية، واللجوء في معظم الأحيان إلى البحث عن تسويغات للتوجهات والممارسات الإسرائيلية.

⁽¹⁾ الاستشراق الأنكلوساكسوني الجديد - تونس - دار المعرفة 2006، ص 43.

4 - تبني الدعاوى الغيبية والذرائعية للصهيونية وكيانها، والتماثل مع الطريقة الصهيونية - الإسرائيلية في النظر إلى الأمة العربية والشعب الفلسطيني.

5 - الترويج لما يسمى المعجزة اليهودية في بناء الدولة، وفي بناء صورة ذهنية عن الصمود أمام التحديات وعن الإنجازات المذهلة لـ"إسرائيل"⁽¹⁾.

ومن أهم المستشرقين الأمريكيين الذين قدموا خدمات كبيرة لتنفيذ المخططات الأمريكية - الإسرائيلية المشتركة، هم:

- برنارد لويس: ولد في لندن وعمل في جامعة كاليفورنيا وكولومبيا وبنديانا.

اهتم بالدراسات المتعلقة بتأثير الغرب ومدنيته على الشعوب الإسلامية.

- ندادف سفرات: ولد في القاهرة، وهاجر إلى فلسطين، ثم انتقل إلى الولايات

المتحدة، وله باع طويل وخطير في توجيه السياستين الأمريكية والإسرائيلية.

وبعد هذا العرض المفصل لا بد من الاستنتاج أن أي تحدٍ محايد لطبيعة العلاقة

العضوية، بين المشروع الصهيوني والنهج الاستعماري الغربي في مجالي النظرية والممارسة، سيخلص إلى إدراك العديد من الثوابت لعلَّ في مقدمتها:

- إن الإيديولوجيا الاستعمارية الغربية تعدُّ أحد المصادر التي استقت منها الإيديولوجيا الصهيونية الكثير من طروحاتها.
- اتسعت الخدمات الغربية المقدمة إلى الصهيونية لتشمل الكثير من خطوات المشروع الصهيوني.
- الاستشراق الغربي زُوِّدَ بآليات عمل جديدة تمَّ توظيفها في بناء المشروع الصهيوني.
- قدم صندوق استكشاف فلسطين مساعدة كبيرة للصهيونية لإقامة كيانها في فلسطين.
- يُعدُّ الاستشراق الأمريكي المعاصر دليلاً قائماً على المدى الذي وصل إليه انخفاض الاستشراق، ولا سيما في الأمور المتعلقة بتمكين الصهيونية

(1) حوار الاستشراق - القاهرة - أحمد الشيخ 1999، ص 30.

وكيانها العنصري في فلسطين، من مواصلة مهماتها الاستعمارية الوظيفية في المنطقة العربية⁽¹⁾.

- واقع العملية الاستشراقية والبحثية لدى الصهيونية وإسرائيل :-

عنيت الصهيونية منذ ولادتها في أوروبا، بالتعرف على المنطقة العربية، وعلى فلسطين بوجه خاص، كإقليم مرشح لإنشاء الاستيطان اليهودي فيه. وكان الاستشراق الأوروبي في جزء منه أحد مصادر هذا التعرف.

ولقد اعتمدت الصهيونية في مواجهة العرب على شبكة معقدة من الدعاوي والتلفيق التاريخية في مسألة ارتباط اليهود بفلسطين، لبعث ما يسمى الشخصية اليهودية، بالإضافة إلى رسم صور خاصة بفلسطين والمنطقة العربية على نحو يحرف الحقائق لإظهار الصهيونيين على أنهم حملة رسالة تمدينية، كخطوة أولى على طريق تعزيز مواقع الاستيطان. وبذلك أصبح الغرب ضحية الخطوات الاستعمارية الإجرائية. "نقاء العنصر اليهودي ودونية العنصر العربي".

لقد قامت هذه النظرة على أسس ثلاثة هي: أساس تكويني وبنائي وغرضي. لذلك اعتمد هرتزل على أن دولة اليهود هي جزء من حائط أوروبا في آسيا، وهي حصن منيع للحضارة في وجه الهيمنة. ومن خلال هذه الأفكار تكونت موضوعات "الفراغ الحضاري العربي المتخلف، والفراغ الديموغرافي العربي"، وأصبحت تنصدر الذهنية الصهيونية تجاه العرب. إلا أن من بين العوامل البارزة التي أملت الاهتمام الإسرائيلي بقضايا الاستشراق والدراسات الخاصة بالأوضاع الصراعية مع العرب:

- وقوع الكيان الصهيوني في تشكيل إقليمي عربي.
- التعرف على مكامن القوة والضعف في الطرف العربي.
- ضرورة الحرب النفسية في أثناء المعارك، بهدف توفير مادة مناسبة للتوجه بها إلى العرب.
- الحيثيات المتعلقة بالواقع السكاني في فلسطين المحتلة.
- التداخلات التراثية التاريخية بين اليهود والعرب والمسلمين.

⁽¹⁾ المرجع السابق، ص 51.

- توفير المعطيات النظرية للمسائل التي ستواجه "إسرائيل" في المستقبل⁽¹⁾.
لذلك لجأت "إسرائيل" والمؤسسات الحاكمة فيها إلى الكثير من المتطلبات من أجل العمل البحثي الإسرائيلي، في محاولة لدفع أبحاث الاستشراق والصراع إلى تحقيق الأغراض المحددة لها، سواء كان هذا الاستشراق إسرائيلياً أم أوروبياً أم أمريكياً.

ففي آلية العمل الخاصة لصناعة القرارات الإسرائيلية يأتي أداء الباحثين ومؤسساتهم على الأغلب عن المرحلة الأولى من أصل ثلاث مراحل، حيث يجمع الباحثون المعلومات لوضع معطيات محددة. بعد ذلك يتم تحليل هذه المعطيات وتفحص دقتها، ومدى ملاءمتها للحالة في ضوء الهدف والوسيلة والاحتمالات، وأخيراً يوضع تصور أكاديمي يُقدّم للجهات المعنية. وهنا تبدأ المرحلة الثانية في صناعة القرار الذي يوصل إلى المرحلة الثالثة، أي مرحلة التطبيق.

وخلال الدور الذي يضطلع به المستشرقون والباحثون في الأداء الإسرائيلي العام.. تخصص المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة قناتين بهدف الارتقاء بسوية الأعمال الحربية.

- القناة الأولى: تربط القطاع البحثي مع القطاع العسكري.

- القناة الثانية: مكرّسة للأغراض البحثية للنشاط الاستخباري الإسرائيلي.

إن التصنيف الإجمالي لمجموعات العاملين الإسرائيليين في الاستشراق وأبحاث الصراع يسمح بتحديد أولي للأصول المرجعية التي تغذي أفكار هؤلاء العاملين ونظراتهم إلى القضايا المثارة. ويمكن بهذا الخصوص تمييز الفئات الثلاث الآتية:

أ- فئة يتحدر الباحثون المنتمون إليها من اليهود الذين غادروا الدول العربية إلى "إسرائيل".

ب- فئة تضم الباحثين الذين نشؤوا بجوار أو ضمن التجمعات العربية.

ج- فئة تضم أولئك المثقفين الذين درسوا الثقافة الإسلامية، وهي بحسب الاعتبارات الإسرائيلية أخطر هذه الفئات على الإطلاق⁽²⁾.

(1) الاستشراق الألماني المعاصر - محمد درابسة - دار حرير - عمان 2010، ص 87/.

(2) الاستشراق والإسلام، خالد إبراهيم المحجوبي - ليبيا - دار الفكر، ص 15، 2010.

والهدف بشكل عام هو فهم عقلية العرب ومعرفة نواياهم، والوصول إلى حصيلة فكرية ومعرفية.

وبما أن حرب تشرين 1973 وما تلاها من أحداث بعد غزو "إسرائيل" للبنان 1982 وتأسيس المقاومة اللبنانية وانتصارها في عام 2000 وحرب تموز 2006 في لبنان، وأحداث غزة أيضاً والانتفاضة الفلسطينية، كلها شكلت هزة كبيرة في المجتمع الإسرائيلي، ومن قبيل تسليط الضوء على الارتباك الذي شهدته "إسرائيل" في القطاع الاستشراقي البحثي، لذلك وبهدف الخروج من المأزق وامتصاص النقمة الداخلية ضد التقصير الإسرائيلي، واستخلاص العبر للإفادة منها مستقبلاً، فقد تجمّع المستشرقون والباحثون للوقوف على مسألة الصراع برمتها، فخرجوا مستخلصين أخطاء عدة أهمها:

- عدم رؤية الأمور المستجدة في الموقف العربي.

- عدم فهم العلاقة بين تعبيرات الرأي العام والقرارات السياسية.

- لم تأخذ "إسرائيل" بعمليات التحديث والتغيير في العالم العربي.

لذلك نظرياً يفترض أن تكون الحالة التي نشأت في صفوف المستشرقين والباحثين الإسرائيليين بعد تلك الأحداث، قد أضافت قوة تحريضية للارتقاء بسوية الأبحاث الصراعية، ولزيادة الاهتمام بشؤون الصراع المختلفة، إلا أن السنوات اللاحقة سجلت تراكمات في المؤشرات حول اتجاه عدم الركون كاملاً لهذا الافتراض، ولعل أبرز هذه المؤشرات هو استمرار الحديث عن الخلل الذي تعاني منه العملية البحثية الإسرائيلية، وخاصة جراء انخفاض التفكير الإسرائيلي الاستراتيجي.

إن الإدراك الجزئي للحقائق، ونزوع المستشرقين الباحثين الإسرائيليين إلى التمييز والوقوع في دائرة الارتباك جراء ضغوط الصراع على الذهنية الإسرائيلية، بالإضافة إلى تمثل الديموغوجيا الصهيونية، في موضوعات الشعب المختار، والأرض الموعودة، والنظرة العنصرية إلى العرب، كل ذلك لا بد أن ينتج بلورة قاصرة - إن لم تكن مغلوبة - للأفكار والقرارات الخاصة بالأوضاع العربية⁽¹⁾.

(1) الاستشراق الفرنسي والأدب العربي - أحمد درويش، ص 61، دار غريب - القاهرة 2004.

- استخلاصات:

- استمدت النظرة الصهيونية إلى العرب مكوناتها من المفاهيم الأوروبية، وطوّرت هذه النظرة استناداً إلى أسس مُعَرِّقة في عنصريتها.
- عبرت الرؤى والمواقف الصهيونية إزاء العرب عن مكوناتها الإيديولوجية، انطلاقاً من موقع العداء للعرب.
- أولت "إسرائيل" عناية خاصة للأبحاث في الشؤون العربية، وشجعتها لاعتبارات تتعلق بالصراع مع العرب.
- تُجرى عملية تسييس المعرفة المتشكلة عموماً تساوياً مع التطلع الإسرائيلي إلى تجنيد الطاقات المتاحة لبناء الدولة على أسس المواجهة المستمرة مع العرب.

- مؤسسات الأبحاث الإسرائيلية في مجالات الاستشراق والصراع والشؤون السياسية العامة:

يغلب على العملية البحثية الإسرائيلية طابع العمل المؤسسي المرتبط وظيفياً بأداء الدولة وتوجهاتها. هذا الفصل يقتصر على تناول مؤسسات الأبحاث الإسرائيلية المعنية بالشؤون السياسية العامة، وذلك وفق أربع مجموعات من حيث تبعيتها وهوية عملها.

- 1- مجموعة معاهد الأبحاث المرتبطة بالجامعات الإسرائيلية وهيئات الإشراف والتنسيق الأكاديمية.
- 2- مجموعة مراكز الدراسات في الأبحاث والهستدروت.
- 3- مجموعة مؤسسات البحث الخاصة المرتبطة أو المتعاونة مع جهات خارجية بشكل رئيس⁽¹⁾.

وبالرغم من تنوع المؤسسات البحثية الإسرائيلية وتوزعها ضمن قطاعات مختلفة، فإن ثمة تضامراً ملحوظاً في أدائها العام، يفضي بدوره إلى تكامل العملية البحثية الإسرائيلية، مما ينعكس بالضرورة على مسألة اعتمادها رسمياً من السلطات الحاكمة. ويمكن القول:

أن التعددية في المؤسسات البحثية، والحالة هذه يراد لها أن تزيد عدد روافد

(1) الاستشراق وأبحاث الصراع لدى "إسرائيل". أليشا أفرات. معهد واشنطن للدراسات. 1996، ص 10.

العملية البحثية، وبالتالي زيادة مقدار الشمولية في تناول الموضوعات التي تهتم "إسرائيل" على خلفية ارتباط هذه المؤسسات بالدولة ارتباطاً يغطي مجالات العمل والقيم والأهداف وغيرها⁽¹⁾.

يشكل تقاسم الأدوار وتخصص كل من الأبحاث الإسرائيلية بدائرة أو أكثر من الشؤون الاستشراقية والصراعية، مؤشراً على أهداف التخصص في دراسة الموضوعات المتنوعة، انطلاقاً من توظيف هذا التخصص في النشاط - الإسرائيلي العام. ومن المعروف أن وظيفة العمل البحثي في هذه المراكز لا تعني أن الاعتبارات السياسية وحدها هي التي تحدد المهام والاهتمام الإسرائيلي بالشؤون العربية. بل إن هناك هامشاً لدوافع تُملئها طبيعة العمل البحثي، إذ بالإضافة إلى قيام هذه المعادلة وقيام هذه المعاهد ببرمجة أعمالها في ضوء الاحتياجات الإسرائيلية العامة، فإنها تقوم بممارسة العمل البحثي بدافع اهتمامها الأكاديمي الخاص من دون أن يعني ذلك أنها تلتزم بمبدأ العام.

ويظل من الثابت أن تعدد المراكز البحثية التي تُعنى بشؤون الاستشراق والصراع بمختلف تشعباتها وارتباطاتها ووجوه عملها، إنما يعكس مقدار الحاجة الإسرائيلية الملحة إلى معرفة العرب لإيجاد علاقات ارتباط بين الواقع والأوضاع التي يراها الإسرائيليون، وبين الصور الذهنية التي يسعون إليها وإلى ترسيخها وهم ينشُدون إيجاد أوضاع مستقبلية تلبى مصالحهم، كما يعكس هذا التعدد بالمثل حاجة "إسرائيل" إلى امتلاك المزيد من عناصر القوة في الصراع الذي تخوضه في مواجهة الدول العربية⁽²⁾.

- المحاور الرئيسية للأعمال الاستشراقية الإسرائيلية:

مع تشعب ميادين الاستشراق وتأسيس الجامعات والمؤسسات البحثية المختلفة، انصرف المستشرقون والباحثون الصهاينة إلى دراسة الشؤون العربية والإسلامية على

(1) المرجع السابق، ص 10.

(2) أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند أدوارد سعيد - حسن حنفي - عبد الله العروي - نديم قاسم النجدي - الفارابي 2005. بيروت، ص 88.

خلفية الحاجة إلى معرفة تخصصية واسعة النطاق. وبالرغم من أن المعلومات التي تنتجها المؤسسات الإسرائيلية الاستشراقية والبحثية، لا تغطي إلا جزءاً من مجمل الأعمال التي تنفذها، فإن ما ظهر من معلومات ونماذج في هذا المنحى، يقدم فكرة أولية عن العملية الاستشراقية والبحثية في الكيان الصهيوني.

- التركيز على اللغة العربية وآدابها:

جاء التركيز على اللغة العربية وآدابها من خلال السجل الشعري العربي القديم، والقاموس العبري - العربي، وأبحاث الباحثين في الأدب العربي. والهدف هو بلورة معرفية عميقة بشؤون العرب، وإيصال هذه المعرفة إلى أجيال الطلبة والمهتمين في الكيان الصهيوني، لأن اللغة العربية وآدابها تعكس واقع المجتمع العربي وهمومه وطموحاته ومشكلاته، وبذلك تؤدي الدراسات الإسرائيلية المتخصصة بالأدب العربي دوراً يتعدى عزلته عن شؤون الصراع العربي الإسرائيلي المختلفة.

- الاهتمام بالعرب والإسلام:

إن البحث الإسرائيلي الاستشراقي في الشؤون العربية والإسلامية يكاد يشمل - بسبب غزارة نتاجاته - المسائل ذات العلاقة بالأمة العربية، مثل "التاريخ وحضارة الإسلام، والأوضاع العامة قبل ظهور الإسلام وبعده".

وقد تؤدي الأبحاث الاشتراقية في تاريخ العرب وحضارتهم مهمة ذات بعد صراعي، حيث يستخدم التاريخ بمجمل مجرياته ودروسه، وبتزييفه كأداة يعتمدها الإسرائيليون عامة، والباحثون والمستشرقون منهم بوجه خاص، لبناء منظومة من الرؤى والمفاهيم التي تسهل أمام النهج الصهيوني التقليدي سبل مواصلة الصراع، وتمكين الصهيونية من إنجاز مشروعها العام، وهنا نميل إلى التأكيد على أن الأبحاث الاستشراقية الإسرائيلية المتعلقة بالعرب والإسلام، لا تتبع من واقع حاجة الإنسان إلى ثقافة عامة حول قضايا الآخرين أساساً، وإنما تنطلق هذه الأبحاث بالدرجة الأولى من موقع كيفية دمج المعرفة بشؤون العرب والإسلام ضمن سياق صراعي، أو على الأقل سياق عملي - فني، يمكن الإسرائيليين - وضمناً مؤسساتهم - من الارتكاز على هذه المعرفة في التوجه الأيديولوجي والسياسي، إزاء الدول العربية والإسلامية عموماً.

- التراث العربي والإسلامي:

إن الدراسة الإسرائيلية للتراث العربي والإسلامي هي دراسة لأمر عينية ماثلة، بيد أنه في المقابل غالباً ما يضاف إليها إسقاطات ذهنية وتفسيرات خاطئة، تخدم المشروع الصهيوني، وتساعد على تسريب المقولات التي يعتمدها.

كما تتم الصورة الاستشراقية الإسرائيلية إزاء العرب والمنطقة، عن استمرار وثبات في المضامين الإيديولوجية للخطاب الصهيوني الذي صيغ منذ وقت مبكر، إذ بقي هذا الخطاب يرسم للأمة العربية الوطن العربي، بصورة تحدد إطارها وملامحها نظرة الذات اليهودية - الصهيونية إلى الآخر، أي نزع الهوية القومية عن العرب والظعن بشخصيتهم الواحدة.

- فلسطين التاريخ والآثار:

المقاصد الإسرائيلية متعددة، من وراء الاهتمام بالتاريخ والآثار الفلسطينية، بحيث تتوازن ضمنها الاعتبارات الاقتصادية والدعائية والمعرفية، فبالإضافة إلى ما تجنيه "إسرائيل" من أرباح اقتصادية ومعنوية، تسعى إلى إيهام الآخرين بتجذر اليهودية في البلاد، عبر انتحال التراث الشعبي العربي وتقديمه على أنه تراث إسرائيلي، كما تشمل الأبحاث الإسرائيلية العامة والاستشراقية اتجاهاً طاعياً، لإيجاد تطابق بين الرواية التوراتية، وواقع البلاد وتاريخها في العصور الغابرة. وهنا يطغى المنهج التوراتي على البحث الإسرائيلي في تاريخ فلسطين وآثارها. وتستمر الدراسات والموضوعات وسواها في الاتجاهات الآتية:

الأول: داخلي، لإيجاد علاقة بين اليهود وفلسطين، وتعزيز انتمائهم للبلاد.

الثاني: صراعي، لحمل العرب على التسليم بفكرة يهودية فلسطين، وفكرة الاستمرارية التاريخية لليهود.

الثالث: دعائي، يتم من خلال التوجه إلى الرأي العام العالمي لكسب التأييد والتفهم والتعاطف لكل ما تطرحه "إسرائيل"، انطلاقاً من التسليم التلقائي بما يسمى الوجود التاريخي لليهود.

- الاهتمام بفترات الحملات الصليبية:

يبدو الاهتمام هنا بهذه المسألة، بهدف تزوير التاريخ في جانب أو أكثر من ذلك، مما يتصل بهذه الفترة، خاصة المتعلقة منها بمعركة حطين 1187م، حول

مقدماتها ومجرياتهما ونتائجها. والهدف العام هو وجود أغراض دعائية وتضليلية لقيام الصهاينة بحشر اسم اليهود، وإقحامهم نظرياً، في المواجهة مع الصليبيين، ليظهروا كما لو أنهم كانوا طرفاً رديفاً للعرب المسلمين في هذه المواجهة. ويبدو أننا تماماً أمام محاولة صهيونية لإعادة كتابة التاريخ وتشويهه ودمجه في النسق الأيديولوجي الصهيوني لأغراض ضد العرب.

- الجولان تاريخه وأثاره:

انفردت منطقة الجولان السورية بمكانة خاصة في العملية البحثية والاستشراقية الإسرائيلية، وقد عُدَّت المنطقة الأولى بعد القدس التي حظيت بالدراسات الكثيرة والمفصلة، وكان الهدف من هذه الدراسات حول الجولان المحتل هو إعطاء صورة نمطية تتطابق مع التزوير التاريخي لما يسمى أرض "إسرائيل" وتاريخ شعب "إسرائيل" المزعوم، معتمدين على الأحداث التي تعاقبت خلال هذه الحقبة لإضفاء الشرعية والهوية على المنطقة، مع استغلال حالة استفرادهم بها⁽¹⁾، وإغلاقها في وجه علماء الآثار والمستشرقين المحايدين.

بصورة عامة وكنتيجة فإنه لا يمكن اعتبار اهتمامات المستشرقين والباحثين الإسرائيليين بالشؤون العربية والإسلامية فردية فقط، وإنما ينبغي النظر إليها كتعبير عما تسعى إليه المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية في نطاق دورها ومهامها لخدمة المشروع الصهيوني.

⁽¹⁾ مؤتمر الاستشراق في عمان. الجامعة الأردنية، عمان 2004، ص 23

المراجع:

- 1- دور الاستشراق وأثره في صراع الحضارات - فراس فرزات القطان - ط 1 - المنتدى الإسلامي - 1991.
- 2- حوار الاستشراق - أحمد الشيخ - القاهرة - المركز العربي للدراسات - 1999
- 3- صناعة الكراهية بين الثقافات وأثر الاستشراق في افتعالها - علي بن إبراهيم - دار الفكر - 2008.
- 4- مؤتمر الاستشراق - الجامعة الأردنية - عمان - 2004.
- 5- الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل - أليشا أفرات - 1996 - معهد واشنطن للدراسات الاستراتيجية.
- 6- أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر - عند إدوار سعيد - حسن حنفي - عبد الله العروي - نديم قاسم نجدي - بيروت - الفارابي - 2005.
- 7- الاستشراق الأنكلو ساكسوني الجديد - آمنة الجلاوي - تونس - دار المعرفة - 2006.
- 8- الاستشراق الفرنسي والأدب العربي - أحمد درويش - القاهرة - دار غريب - 2004.
- 9- الاستشراق الألماني المعاصر - محمود درابسة - عمان (الأردن) - دار جرير - 2010.
- 10- الاستشراق والإسلام - خالد إبراهيم المحجوبي - ليبيا - دار الفكر الجماهيري - 2010..

العلاقات السورية الإيرانية

د. عبد الله الشاهر ♦

مقدمة:

تُعدُّ العلاقات الثنائية بين سورية وإيران أقوى العلاقات في منطقة الشرق الأوسط، فقد بدأت معالمها منذ بداية الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 التي ارتقت في مسيرتها إلى مستوى التحالف في المجالات جميعها، وقد اتسمت هذه العلاقات بين الدولتين بسماتٍ أساسية كان من أهمها: خضوع هذه العلاقات لمجموعة من الثوابت التي كان لها كبير الأثر على العديد من الجوانب (العسكرية – السياسية – الاقتصادية – الثقافية)، وبحكم هذه الثوابت التي ترسخت بين البلدين فقد تجاوزت كل من الدولتين مجموعة من الأزمات الإقليمية التي حاولت زعزعة كلتا الدولتين إلا أن تميز هذه العلاقات ومتانة أواصرها حماها من كثير من الأزمات، ذلك أن السمة البارزة التي تميزت بها العلاقات السورية الإيرانية هي الحركية والتغير في بيئة إقليمية حافلة بالقضايا المعقدة والمتجددة مع قدرتها – على الرغم من هذه الحركية – على المحافظة على ثوابتها الأساسية.

♦ عضو اتحاد الكتاب العرب، كاتب وباحث من سورية.

لقد تشكلت ثوابت السياسة السورية ومشروعها الوطني والقومي بصفتها دولة محورية في الوطن العربي إلى جانب التوجهات والإجراءات التي قامت بها الثورة الإيرانية وترجمتها على أرض الواقع في نهج الدولة الإسلامية بدعمها وتأييدها للحق العربي، هذا الدعم الذي كان ولا يزال الأساس المرجعي في التأسيس للعلاقات السورية الإيرانية المتوازنة والمتناسقة، واللافت في هذا أن العلاقات السورية الإيرانية كانت وما زالت محط اهتمام ومتابعة من القيادتين (السورية والإيرانية) لجهة تقويتها وتطويرها وزيادة روابطها، وصولاً إلى إنجاز متطلبات ما تقتضيه عملية الوصول إلى علاقات استراتيجية بين الدولتين...

بالمقابل برزت هاتان الدولتان كهدف للتآمر عليهما وتخريب قدراتهما وتفتيت تماسكهما، ووضعتا في دائرة اهتمام القوى المعادية التي بدأت تحوّل المؤامرات تحت عناوين وذرائع مختلفة يغلب عليها الزيف والتضليل، مما جعل الدولتين (سورية وإيران) تردّان على هذه المؤامرات بزيادة التمسك بخيار المقاومة وتقوية روابط العلاقات. وبانطلاق الأحداث في سورية وتكالب الغرب وتابعهم الإقليمي على سورية اتخذت إيران موقفاً واضحاً، فقد أعلن المرشد الأعلى بأن ما يحدث في سورية ما هو إلا مؤامرة خارجية تحركها الولايات المتحدة و"إسرائيل" وحلفاؤهما، لكسر سورية والتخلص منها لكونها من ضمن محور المقاومة...

وانطلاقاً من هذا الموقف فقد تحول الموقف الإيراني من الدعم المعنوي إلى الدعم السياسي فالدعم العسكري فالاقتصادي، وبدا واضحاً تأييد شرعية الدولة السورية على المستوى الرسمي.

وبالنظر إلى تغيرات عالم اليوم وما يحاك لهاتين الدولتين من دسائس ومؤامرات ومواقف فقد أصبحت هذه العلاقات أكثر تحسباً وأقوى مواجهة لأنها خاضعة لتداعيات المرحلة وتحدياتها، وهذا لا يعني إغفال الأوضاع الداخلية المساهمة في صنع القرار الخارجي للدولتين.

فما هي أبعاد العلاقات الثنائية بين البلدين (سورية - إيران)؟

وما هي المبادئ والأسس التي تقوم عليها هذه العلاقات؟

وما هي الأسباب التي تجعل هذه العلاقات قوية؟

أولاً - أبعاد العلاقات الثنائية بين البلدين:

إن قيام علاقات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية بين طرفين إقليميين يحتاج إلى مسوغات تستند إليها تلك العلاقات، وتؤسس عليها لتكون مرتكزاً له هذه الأبعاد التي وردت، وفي مجال العلاقات السورية الإيرانية بإمكاننا أن نجد أبعاداً كثيرة تشكل عمقاً للعلاقات ومرتكزاً لاستمراريتها، ومن هذه الأبعاد:

البعد الأول - البعد الجغرافي:

لقد مثلت منطقة الشرق الأوسط عبر تاريخها الطويل معبراً للمواصلات العالمية بين القارات الثلاث (آسيا - إفريقيا - أوروبا)، ممّا جعل منها موقعاً استراتيجياً مهماً في الحياة العالمية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من غنى في مواردها الطبيعية، وهذا ما عزز التوتر في المنطقة وأشعل الحروب في داخلها.

فإيران تمتاز بموقع استراتيجي بالغ الأهمية جعلها معبراً للتجارة وحلقة وصل بين الشرق والغرب، وهي بحكم موقعها الجيوستراتيجي، وبحكم إمكانياتها المتعددة تعد إحدى القوى الإقليمية الرئيسة في منطقة الشرق الأوسط.

وسورية - بما تتمتع به من موقع جغرافي، وبما تملكه من ثروات - يجعل منها ضرورة جيو - استراتيجية ذات مكانة وقدرة وغنى تشكل مع إيران حالة جغرافية ذات أبعاد سياسية واقتصادية، وهذا ما يغري أيّ قوة عظمى تريد المنافسة، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون لكلا البلدين علاقات متينة قادرة على صد ما يتهددهما من أخطار وأطماع.

إن البعد الجغرافي يمثل حالة القوة الطبيعية للبلدين من حيث الامتداد والتشكل والطموح، وهذا البعد الطبيعي لا يمكن فصله، لذا نرى القوى المعادية تحاول تفكيك المنطقة وتجزئتها إلى كتل متناحرة متنافرة ليسهل السيطرة عليها، لذلك فإن العلاقات السورية الإيرانية شكلت حالة عمق استراتيجي على المستوى الجغرافي، وهذا ما يجعل الولايات المتحدة الأمريكية "إسرائيل" تسعى جاهدة لإيجاد الحواجز وإثارة المشكلات في المنطقة..

إن البعد الجغرافي من أهم مرتكزات العلاقات السورية الإيرانية التي تمثل تكاملاً استراتيجياً له أبعاده المستقبلية في التوازن على المستوى الإقليمي والدولي.

البعد الثاني - وجود توتر إقليمي دائم:

تعيش المنطقة وجود توتر دائم، وذلك بسبب تركيز المخططات الغربية الاستعمارية على المنطقة العربية بشكل عام وعلى إيران، مما حدا بالغرب إلى زرع الكيان الصهيوني كقاعدة متقدمة للغرب في الشرق الأوسط، بهدف منع قيام وحدة عربية وإرباك المنطقة برمتها، فكان من الطبيعي توطيد العلاقات السورية الإيرانية من أجل حماية مصالحهما وتشكيل موقف إقليمي موحد لدفع الأخطار والحفاظ على الوجود الذي تكالبت عليه القوى الغربية، فأيران مستهدفة منذ قيام الثورة الإسلامية وما زالت الأخطار تحيط بها، والغرب والولايات المتحدة الأمريكية و"إسرائيل" ومن تبعهم من أدواتهم الإقليميين يحاولون جاهدين تمزيق قدرات الدولة الإيرانية وإحباط قوتها، وسلبها التقنية العلمية التي تسلحت بها، وتفتيت التماسك السياسي والاجتماعي الإيراني. وما الهجمة على سورية وإيران إلا لكونهما يشكلان منظومة مقاومة، وهذه المنظومة التي تمثلها هاتان الدولتان تجلت الهجمة عليهما في جوانب مختلفة، ويمكن تحديد ذلك بالنسبة إلى سورية في ثلاثة مظاهر أساسية:

المظهر الأول: هو أن سورية تشكل منظومة دولة بالمعنى الحدائلي العلماني الذي أفرز مؤسسات متكاملة قادرة على الإنتاج والإدارة والاستقلالية، وهذه شكلت العلامة الفارقة لسورية، مما جعل القرار السياسي لديها مستقلاً ومؤثراً في جغرافيتها ومحيطها، الأمر الذي عرقل - إن لم نقل أحبط - العديد من المخططات على المستويين الإقليمي والدولي، وهذا ما استدعى الغرب وتابعيه للتفكير في إزالة منظومة الدولة في سورية بتفتيتها من الداخل.

المظهر الثاني: إن سورية تعبر عن منظومة توازن إقليمي بقي قائماً على الرغم من التناقض الصارخ الذي خلفه وجود "إسرائيل"، ولذلك فالمسألة تحسب على أنها ليست دولة مقاومة أو دولة ممانعة بالمعنى العسكري فحسب، وإنما يأتي الخطر السوري من أن الثقافة الاجتماعية في سورية هي ثقافة مواجهة تقف في مواجهة ثقافة بديلة جسدها الغرب بحكم الوجود الإسرائيلي منذ سبعة عقود، وهذه الثقافة غير قابلة للاختراق على الرغم من المحاولات العديدة، مما أدى إلى إيجاد الوسائل التي يرى الغرب من خلالها الإجهاز عليها، وهي الطائفية والمذهبية وعبر قنوات متعددة.

المظهر الثالث: وهو أن سورية منظومة ارتباط حضاري لا يمكن من داخلها فرز وتمييز المفاهيم السياسية الكلاسيكية مثل «الشرق والغرب» أو حتى التي ترتبط بالتمايز الديني؛ لأن سورية ذات ارتباط حضاري مع كل بلدان العالم، وهذا الارتباط يعطيها عمقاً في علاقاتها وتجذر هذه العلاقات، أما في الجانب الديني فإن سورية مركز التنوع الديني والتعايش التام، وبهذا المعنى يحمل المجتمع السوري السمة الحضارية بكل مقوماتها الاجتماعية والثقافية والدينية والفكرية، وهذا الترابط الجميل والتاريخي شكل حاجزاً قوياً أمام كل التحديات والتوجهات الاستعمارية الغربية، مما جعل الغرب الاستعماري يعيد ترتيب الأمور بحسب أولوياته، لذلك فإن الأمر الأساس الذي أريد لسورية هو جعل العنف ظاهرة في داخل بنية "جهادية" تبلورت وفق خطوط جديدة في الداخل السوري، بهدف إيجاد جبهة عنف تعيد صياغة سورية وفق هوى قوى الاستعمار الغربي، وقد جاءت هذه الصياغة عبر وسائل وأدوات كثيرة.

أما بالنسبة إلى **الدولة الإيرانية** فقد انتصرت الثورة الإيرانية في ظرف دولي كان يشهد نظام القطبين العالميين، وطرحت نفسها قوة ثالثة غيرت موازين القوى لصالح دول العالم الثالث وبخاصة العالم الإسلامي، إذ أكدت الثورة على الصعيد الخارجي رفض التسلط الخارجي إلا أن الغرب والولايات المتحدة و"إسرائيل" ترى أن الخطر الإيراني أمراً واقعاً لا مفر منه، ولذلك كانت الهجمة على إيران؛ لأنها من منظومة المقاومة، ويمكن تحديد هذه المنظومة التي تمثلها إيران في مظاهر أساسية هي:

المظهر الأول: ما من شك بأن إحدى أهم الركائز التي استندت إليها الثورة الإسلامية في إيران كانت الإسلام، والخيار الإسلامي للثورة الإيرانية لم يكن عودة إلى الوراثة بل صحوة إسلامية تجدد الكثير من المفاهيم واستيعاب معطيات العصر، إلى جانب أن الخيار الإسلامي كان تحصيناً لإيران في وجه التغريب الذي حاول حكم الشاه أن يمسخ به هوية الشعب الإيراني الإسلامية والشرقية وإلحاقها بالغرب، إضافة إلى أن الثورة الإسلامية الإيرانية وبهذه القوة كانت مخيفة للولايات المتحدة الأمريكية كتجربة ثورية إسلامية قد تكون جامعة للمسلمين في العالم، وهذا يشكل تهديداً مباشراً للمصالح الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، مما

دفعهم للإسراع في تدبير المؤامرة ومحاولات الحط من طموح إيران تحسباً من أن تكون جامعة إسلامية.

المظهر الثاني: منذ بداية الثورة الإسلامية اتخذت إيران الخيار العلمي، فإيران ليست دولة الملالى أو دولة العمائم كما يسميها بعضهم، وإنما هي دولة العلم والتكنولوجيا والتقنيات الحديثة، فقد استطاعت -رغم الحصار المفروض عليها والحروب التي شنت ضدها - أن تصل إلى مراتب متقدمة ليس باستخدام التكنولوجيا فقط بل في إنتاجها على مختلف الميادين أيضاً، فإيران تصرف ربع ميزانيتها على البحث العلمي، وهذا التوجه العلمي لم يرق للغرب جميعاً، ولذلك كانت المؤامرة على إيران وحصارها؛ لأنهم يريدون إيران دولة تابعة دون نهضة ولا بحث، ولا يزال الغرب والولايات المتحدة يجريان محاولات في كيفية وقف التقدم العلمي الإيراني، فكان الحصار ومحاولات الاتفاق النووي الإيراني والصواريخ الباليستية، لكن مسيرة العلم والبحث العلمي في إيران لم تتوقف رغم كل المحاولات، فقد احتلت إيران المرتبة الحادية عشرة على مستوى العالم في مجال إنتاج العلوم، وهذا يشكل تحدياً للغرب وللولايات المتحدة الأمريكية.

المظهر الثالث: أنموذج الدولة الذي أرسته الثورة الإيرانية والقائم على التوفيق بين قيم الثورة وضرورات الدولة من خلال بناء دولة قوية لها مكانتها المؤثرة في المعادلات الإقليمية والدولية التي استطاعت بقدراتها الذاتية -ورغم الحصار الاقتصادي المفروض عليها - بناء قوة عسكرية وتطوير معارفها الطبية والفضائية والتكنولوجية، وهذا التطور لم يكن ممكناً لولا طبيعة الدولة القادرة على هذه الإنجازات المحققة التي جعلت من إيران هدفاً لدول الغرب وللولايات المتحدة، بحيث أصبحت هذه الدول تسعى بكل قواها للنيل من إيران وبأي ثمن كان.

المظهر الرابع: وهو البرنامج النووي الإيراني، وهذا الإنجاز يتواءم مع برنامج نووي طموح للاستخدام السلمي، ورغم كل الضغوط التي واجهتها إيران والموانع التي اصطدمت بها فقد بقيت ماضية في مشروعها هذا حتى باتت فعلاً إحدى دول النادي النووي الدولي، وبات ملفها النووي خارج إطار التفاوض مع دول الغرب، مما جعل إيران رقماً صعباً في المعادلة الإقليمية لا يمكن تخطيه في قرار الحرب أو صناعة السلام ليس فقط على مستوى المنطقة بل على مستوى العالم أجمع.

ومن خلال هذا كله لكلتا الدولتين السورية والإيرانية، ولما لديهما من إمكانيات وقدرات فإن المحاولات الغربية والولايات المتحدة الأمريكية و"إسرائيل" والأقليات الإقليميين يسعون جاهدين وبكل الأثمان للنيل من قدرات هذين البلدين والبحث عن نقاط الضعف للدخول منها ومحاولات إيجاد توترات دائمة في المنطقة لإعاقة مشروعات التنمية وخلق بؤر من التوتر تهدف إلى تفتيت المنطقة وتشتيت إمكانياتها وهدر طاقاتها وإرجاعها إلى حالات التخلف والجهل والتناحر، وإن ما يجري اليوم من هجمة قذرة على سورية وإيران يحتم عليهما زيادة التماسك والتحالف لدرء هذا العدوان المستمر والتسلح بالقوة والردع؛ لأن ما يحاك كبير ولكن إرادة المقاومة أكبر، وما الهجمة على سورية منذ مطلع عام 2011م وحصار إيران وإثارة المشكلات والصواريخ الباليستية ما ذلك إلا ضمن مخطط يسعى إلى جعل منطقة الشرق الأوسط في حالة عدم استقرار دائم، وإذا كانت إيران وسورية مستهدفتين فهذا يعني أنهما رأس الحربة وصلابة الإرادة وقوة التحدي وعمق المقاومة.

البعد الثالث - وجود الكيان الصهيوني في المنطقة العربية:

لقد أخذت القضية الفلسطينية موقعها المتميز في الخطاب الإيراني من خلال أشكال متعددة، فأيران أولت القضية الفلسطينية اهتماماً خاصاً عبر احتضانها في وقت مبكر بدءاً من تحويل سفارة الكيان الصهيوني إلى سفارة دولة فلسطين إلى مسيرة البراءة ويوم القدس العالمي وأمور أخرى عديدة، وهذا تلاقى مع الموقف السوري من القضية الفلسطينية وقاد إلى تشكيل جبهة المقاومة.

إن التحولات الجارية في المنطقة وضعت المنطقة أمام مواجهة جديدة، إذ يرى العدو الصهيوني أنه أمام مشهد جديد لشرق أوسط جديد مليء بالغضب قابل للانفجار، وعلى خلفية ذلك فإن الكيان الصهيوني وجد نفسه أمام حلف متين هو المقاومة الذي أساسه التحالف السوري الإيراني، وما جرى ويجري من دعم للإرهابيين من الكيان الصهيوني ما هو إلا محاولات يائسة لإحداث خرق في جدار المقاومة الذي يزداد تماسكاً وقوة وفاعلية.

إن هذا البعد هو ما يخيف "إسرائيل" والولايات المتحدة الأمريكية، ويجعل الدول التابعة لهما تعيش حالة قلق دائم يقض مضاجع حكامها، ولذلك تمّ الدفع بالكيان الصهيوني لأداء دور ما في الحرب على سورية، وقد تطور هذا الدور من لوجستي إلى تقديم مجموعات من العناصر والأدوية والعتاد والوقود والملابس.

إن ما يجري في المنطقة -وتأسيساً على العلاقة السورية الإيرانية- سيجعل من المنطقة حالة من الصد الذي ينهي عريدات الكيان الصهيوني ويردع تطلعاته ويحجم كل المشروعات الأمريكية الرامية إلى تفتيت المنطقة بشكل عام، وإحداث بؤر توتر عرقية وإثنية وطائفية ومذهبية تؤدي إلى التشتت والقتال.

البعد الرابع - بروز ظاهرة الإرهاب:

إن بروز ظاهرة الإرهاب في المنطقة العربية والهجمة الكونية التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية والتي تهدف من خلالها كل منطقة الشرق الأوسط، وما قامت به المجموعات الإرهابية في المنطقة عامة وفي سورية على وجه الخصوص فإن ذلك يحتم على إيران الوقوف في وجه الإرهاب لأن ذلك يدخل في مجال الأمن القومي الإيراني، وهذا بحد ذاته يشكل عامل تقاطع للمصالح الأمنية المشتركة بين إيران وسورية، ومما لا شك فيه أن الحالة التي تعيشها سورية أفرزت معطيات مختلفة داخلية وإقليمية ودولية، وفي هذا كله كان على إيران أن تعيش هذه الحالة من موقف التحالف السوري الإيراني وكذلك درء الخطر عن المنطقة، ذلك أن الإرهاب التكفيرى المتطرف، إنما هو خطر محقق في كل المنطقة بل على البشرية وحضاراتها التاريخية.

إن سورية اليوم تخوض معركة كبيرة مع حليفها الإيراني ضد هجمة إرهابية وحشية شرسة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، وهي بذلك تدافع عن نفسها ووجودها وأصالتها وعن حلفائها وعن العالم في مواجهة عصابات إرهابية.

إن من عناصر القوة الإيرانية على الصعيد الخارجي تحالفات إيران الإقليمية والدولية المدروسة بدقة وعناية، ومن أبرزها العلاقات السورية الإيرانية، وبفضل هذا كله فقد أثبتت وقائع الأزمة تماسك الحلف المشترك بين الدولة السورية وإيران

وغيرها من الدول الصديقة مثل روسيا والصين، كما أثبتت أن هذا التحالف وما قدمه من دعم كبير وفي المجالات جميعها للدولة السورية استطاع أن يدحض هذا المشروع الإرهابي المصنَّع غربياً وإقليمياً.

إن العلاقة السورية الإيرانية أثبتت وجودها في هذه المعركة التي ستكون فاصلة والتي أثبتت أن جبهة المقاومة السورية الإيرانية قادرة على دفع الأخطار ودحر هذه المخططات التي تهدف إلى تفتيت المنطقة، وما الموقف الإيراني المشرف إلا شاهد حق في الحرب الكونية على سورية، وما القدرة الإيرانية على إنجاز ما أنجزته من تقدم علمي وعسكري واقتصادي ما هو إلا دحر للإرهاب والإرهابيين الذين جندتهم الدوائر الغربية، لذلك تكتسب العلاقات السورية الإيرانية أهمية خاصة في قدرتها على مواجهة الإرهاب التكفيري وإبراز قوة العلاقات السورية الإيرانية ودورها المؤثر، وقدرتها على هزيمة كل المخططات الإرهابية التي سعت جاهدة لضياع المنطقة.

ثانياً - المبادئ والأسس التي تقوم عليها العلاقات السورية الإيرانية:

لقد شككت ثوابت السياسة السورية ومشروعها الوطني والقومي كدولة محورية في الوطن العربي، إلى جانب التوجهات والإجراءات التي قامت فيها الثورة الإيرانية بدعمها وتأييدها للحق العربي الأساس، المرجع في التأسيس للعلاقات السورية الإيرانية المتوازنة والمتناسقة، وفي هذا الإطار فإنه يمكن القول: إن هناك أسباباً عدة تجعل هذه العلاقات قوية، ومن أهمها:

1 - موضوعية وشرعية الأسس التي تقوم عليها هذه العلاقات، كونها تستجيب لتطلعات الشعوب في التخلص من الاحتلال والهيمنة الخارجية من خلال مسعاها لتحقيق حريتها واستقلالها، وتجسيد إرادة ورغبة قادة البلدين الصديقين بأهمية هذه العلاقات التي تم امتحانها في أوقات المحن والشدائد، والتي كانت سبباً ناجحاً في مواجهة الضغوط والمشروعات التي أثرت ضدّها ووجهت للنيل من استقلالهما، إذ إن الهجمة الكونية على سورية التي جند لها هؤلاء كل ما يملكون من وسائل وأدوات إرهابية، وكذلك الحصار على إيران ومحاولة خنق الشعب

الإيراني وحرمانه من حقوقه العلمية والتقنية قد أثبتت أن أسس العلاقة السورية الإيرانية راسخة ومتمينة، وهي قادرة على أن تحمي نفسها من كل التيارات التي تهدد وجودها وحقوقها، وإن متانة هذه العلاقة مستمدة من روح الشعبين والقيادتين السورية والإيرانية.

2 - إنها تأتي لترميم وتعويض حالة الضعف في المشروع العربي وتشتته والذي ظهر بشكل مكشوف في السنوات الأخيرة عندما كانت سورية تتعرض إلى ضغوطات واتهامات ومؤامرات عدوانية خارجية تستهدف الوطن ومركزاته الأساسية، وكان بعض قادة النظام العربي يتماهون بمواقفهم مع الخارج المتآمر على سورية ويحاولون تفتيتها، وهذا ما يختلف عن الموقف الإيراني الذي ظهر ملتزماً بالدفاع عن سورية حكومة وشعباً، ومعبراً عن تطلعات وأهداف الشعوب العربية والإسلامية، في مواجهة المشاريع المعادية التي كانت تحاول النيل من عزتهم وكرامتهم وتطلعاتهم إلى التحرر والاستقلال والتنمية.

وكان من الطبيعي أن تمتد مفاعيل هذا الموقف والتعاون السوري الإيراني إلى القوى المقاومة لتلك المشاريع في لبنان وفلسطين والعراق وإلى حركات التحرر في العالم فأخذت منه واستقوت بمعطياته وأعطته في الوقت ذاته من رصيدها فزادته قوة، وهذا ما جعل من هذا التعاون عامل جذب واستقطاب للشرائح الأوسع والأهم في العالمين العربي والإسلامي، وركيزة قوية يستند عليها أحرار العالم في نضالهم ضد الهيمنة والتسلط.

إن العلاقات السورية الإيرانية وفق هذا المنظور وعلى أساس هذه المنهجية أسست لعلاقات مصيرية صادقة في التعامل أثمرت نتائج واضحة المعالم في مواقفها، مما يعطي صورة رائعة عن مستوى العلاقة، الأمر الذي يجعل الكثير من الشعوب والدول تنظر إلى العلاقة السورية الإيرانية على أنها أنجزت على مبادئ وأسس سليمة ومتوازنة.

3 - إنها تأتي استجابة لحاجة كل من الطرفين لإضافة قوة جديدة إلى قوته وذلك من أجل تعديل موازين القوى الإقليمية والدولية في إطار المواجهة التي فرضتها القوى المعادية على كل من الدولتين، وقد دلت الوقائع على نجاح كبير في

استخدام قوتها معاً في مواجهة الضغوط التي فرضت عليهما ، ولا نعتقد أن من مصلحة أي منهما إضعاف هذه القوة أو التسبب في إحداث أي خلل فيها.

والحقيقة الواضحة أنه في الوقت الذي لا تجد فيه سورية مُسوَّغات لأن تذهب بمفردها في مواجهة الإرهاب والهجمة الكونية على سورية دون حليفها الأساسية إيران التي وقفت موقفاً مشرفاً وبكل قوتها ، فإن إيران هي الأخرى لا تجد مُسوَّغات في مواجهة الضغوط الأمريكية والإسرائيلية والغربية التي تمارس عليها ، دون حليفها الاستراتيجية سورية التي كان لها دور مشهود في توضيح صوابية الموقف الإيراني وتبديد الشكوك المصطنعة التي تسوقها أمريكا و"إسرائيل" حول عسكرة برنامجها النووي وإيجاد الذرائع للعدوان عليها وتخريب منشآتها.

إن العلاقات الإيرانية السورية بهذا الفهم بنيت على مبادئ وأسس استراتيجية لا على مصالح آنية ، وهذه العلاقات مبدئية عميقة لا يمكن لها أن تتأثر أو يشوبها شائب ، لذلك فإن دول الغرب والولايات المتحدة تسعى مع الكيان الصهيوني وأتباعها الإقليميين إلى النيل من هاتين الدولتين ، وفي الحقيقة إن مساحة الفعل لهذا التحالف توسعت وتوسع ، وهي قادرة على الرد والثبات.

4 - وبناءً على ما تقدم نستطيع التأكيد على عدم وجود رغبة لدى أي من الطرفين في الاستغناء عن هذه العلاقة ، ولا سيما إذا ما أخذنا بالحسبان ميزة التبادلية في سياساتهما وقدرتهما على صياغة علاقات جديدة مع دول العالم مع الحفاظ على علاقات قوية مع بعضهما بالتزامن مع استمرار لقاءات ومؤشرات التنسيق والتعاون الإقليمية الهادئة والهادفة إلى تعزيز جبهة المقاومة على قاعدة عدم تقديم أي تنازلات أمام الضغوط الأمريكية والأوروبية والتهديدات الإسرائيلية.

إن ارتباط سورية وإيران بعلاقات مبدئية استراتيجية قوية ساهمت في وقف كل مخططات الدوائر الأمريكية الأوروبية الصهيونية التي تهدف إلى عزل إيران ومحاصرتها ، ونستنتج كذلك أن الحرب على سورية هي جزء من الصراع في المنطقة وعليها ، ولذلك فإن العلاقات السورية الإيرانية في تكاملها أدت إلى وقف الأهداف الأمريكية وتعزيز موقف المقاومة الذي أدى إلى انهيار ما يدعى بالشرق الأوسط الجديد أو "الربيع العربي"...

ثالثاً - الأسباب التي تجعل هذه العلاقات قوية بين البلدين :

إن الأسباب التي تجعل العلاقات قوية بين سورية وإيران هي الرغبة الصادقة في تطوير هذه العلاقات وتحسينها على قاعدة التعاون والتشاور الصادق والواضح والاحترام المتبادل لخصوصية كل طرف تجاه الطرف الآخر، وعلى مراعاة المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة التي تحفظ الحقوق الوطنية وتصون الكرامة.

فالمخاطر والمؤامرات والتحويلات ومن ثم النجاحات التي تم تحقيقها في مسيرة تعاون البلدين تفرض على سورية وإيران أكثر من أي وقت مضى البناء على ما تم إنجازه والعمل على تطويره وتحديثه، وكل هذا جاء مدعوماً بالمؤيدات الآتية:

1 - إدراك قيادتي البلدين (سورية وإيران) أهمية هذه العلاقة ودورها في تثبيت استقرار المنطقة كمبدأ معلن في سياستيهما وكمدخل لتصليب الأرضية التي تستند إليها العلاقات والتي كان من نتائجها ملامح فشل المشروع الأمريكي - الصهيوني وانتصار المقاومة وزيادة فعاليتها.

2 - التحديات التي تفرضها العولمة في جانبها الاقتصادي والتي تحتاج مواجهتها تعاوناً عربياً وإسلامياً ودولياً، فإنها تجد استجابة لها في أن يبدأ التعاون أولاً مع البلدان التي تتوافر فيها الإرادة السياسية الداعمة والمتماثلة في التوجهات والمتقاربة في المواقف، وعلى هذه المعطيات فإنه يكون العمل على صياغة معادلة ما بين إيران وسورية تأخذ بالحسبان المنافع المتبادلة والعلاقات المتكافئة في إطار عقد شفاف يعتمد القانون والمصالح المشتركة مطلباً ملجأً للتسيق والتعاون في مواجهة تحديات العولمة ومؤسساتها.

3 - التغييرات التي نشهدها - ولا سيما العقوبات المفروضة على البلدين - قد تتغير أشكالها لكن أهدافها لن تتغير، وهذا ما يضع العلاقات أمام تحديات جديدة تحتاج إلى أساليب وطرق جديدة، تعالج وترمم القائم منها، وتضيف عليه كل ما من شأنه أن يزيد في قوتها وأدائها.

4 - بالاستناد إلى ما تقدم يمكن الاستفادة من النجاحات في العلاقات السورية الإيرانية كأنموذج يمكن التأسيس عليه؛ لزرع الثقة والاطمئنان مع دول

الجوار العربي من خلال الانفتاح والحوار مع الجانب الإيراني، تمهيداً لإزالة الشكوك والمخاوف المتعلقة والمغذاة أمريكياً وإسرائيلياً وأوروبياً، وصولاً إلى إرساء سياسة تقوم على التعاون والتنسيق ضمن معايير واضحة ومحددة.

إن المشروع الأمريكي الصهيوني لن يستثني أحداً من العرب والمسلمين، وأصحابه دائماً في حالة استنفار وعمل من أجل تفتيت البلدان العربية طائفيًا ومذهبيًا وعرقيًا، وخلق بؤر توتر جديدة تستنزف طاقات الأمة وتخرب نسيجها الاجتماعي، وكل ذلك من أجل السيطرة على النفط وتعزيز قدرات "إسرائيل" وتقويتها، وصولاً لإنجاز مشروعها الكبير..

ونعتقد أن التعاون العربي الإيراني إذا ما تم على أسس واضحة سيحول دون تنفيذ هذا المشروع الرامي إلى تفتيت البلدان العربية وزيادة ضعفها.

المراجع

- 1 - أحمد إبراهيم محمود (د)، البرنامج النووي الإيراني - آفاق الأزمة بين التسوية الصعبة ومخاطر التصعيد - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - القاهرة 2005.
- 2 - أحمد خدام السروجي - السياسة الأمريكية الخفية في الشرق الأوسط - دمشق 2016.
- 3 - أحمد السمان - الحصار التكنولوجي والتوجه الخارجي الإيراني - مختارات إيرانية - مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية - العدد 60، 2005.
- 4 - عبد الله الشاهر (د)، العنف السياسي - دار معد - دمشق، 2015 .
- 5 - سيد رضا صدر الحسيني (د)، داعش النشأة والبنية والأهداف - ترجمة أيهم علي حسون - محمد عبد اللطيف علي - مراجعة د. نزار بني المرجة - د. حسام شعيب - وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق، 2018.
- 6 - ماريا خودنيسكايا - غوليشيفا - الجانب الصحيح من تاريخ الأزمة السورية - ترجمة عياد عيد - وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق، 2016 .
- 7 - مجلة الفكر السياسي - الأعداد - 46 - 47 - 48 - 49 اتحاد الكتاب العرب - دمشق، 2013.
- 8 - مجلة الثقافة الإسلامية - المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في سورية - العدد 108 - نيسان، 2013.
- 9 - بثينة شعبان: عشرة أعوام مع حافظ الأسد (1990 - 2000) - مركز دراسات الوحدة - بيروت، 2015 .
- 10 - جورج جبور (د)، الفكر السياسي المعاصر في سورية - المجلد الأول - ط الثالثة - دمشق، 2011.
- 11 - مالك صقور : الأبعاد الثقافية للحرب على سورية - وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق، 2015 .

مفهوم العقيدة الأوراسية وهستقبلها!

د. تركي صقر ♦

يشير كثيرون بل يؤكدون أن العقيدة الأوراسية أضحت بديلاً عن العقيدة السوفييتية، لكن ليست وريثاً لها، حيث إن العقيدة الأوراسية لها معنى مختلف لما تتمتع به من حداثة ومظاهر عصرية في ظل العولمة التي تراجع فيها الولايات المتحدة الأمريكية إلى الوراء، وتتقدم فيها روسيا وحلفاؤها إلى الأمام، مع استمرار الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بتطبيق شعاره الانتخابي "أمريكا أولاً" وصولاً إلى نجاح الاتحاد الروسي بقيادة الرئيس بوتين في التوجه نحو عالم متعدد الأقطاب، وتقويض ركائز نظام القطب الواحد الذي تربعت فيه الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن على عرش العالم دون منازع.

♦ عضو اتحاد الكتاب العرب، كاتب وباحث من سورية.

مفهوم العقيدة:

مفهوم العقيدة لا ينطبق تماماً على ما يسمى عقيدة أوراسية؛ لأن العقيدة في اللغة هي المصدر من الفعل اعتقد يعتقد اعتقاداً، أخذت من العقد، وهو الشد والربط بقوة، ولذلك يُطلق مُصطلح العقد على البيع والشراء، واليمين، ونحوها؛ لارتباط هذه الأطراف شرعاً وعرفاً، أما العقيدة في الاصطلاح فيُقصد بها ما يُعقد عليه قلب الفرد، ويجزم به، ويتخذ منه ديناً ومذهباً له؛ بحيث لا يشوبه الشك فيه، أي إنها ما يُعقد عليه الضمير، أو يُمكن القول: إنها الإيمان الجازم المترتب عليه قصد المرء وعمله وقوله.

من هنا ليس دقيقاً القول: إن هناك عقيدة أوراسية بالمعنى الإيديولوجي أو البحثي الأكاديمي بل هناك فضاء أوراسي بالمعنى الجيوبولتيكي نابع من فكرة أساسية تقول: إن الجغرافيا تصنع التاريخ، وإنهما معاً يصنعان السياسة، وهذا ينطبق بشكل خاص على روسيا، فهي بلد أوراسي «أوروبي - آسيوي» كبير، يمتد على مساحة أكثر من 17 مليون كم مربع، ويشغل 40% من مساحة أوروبا، ومساحة الدولة الروسية هي أكبر من مساحة القارة الأوروبية مجملها، أي بما فيها الـ 40% لروسيا.

لذلك ترى روسيا الاتحادية أن لها الحق أن تكون قطباً دولياً منافساً للولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الأقطاب الدولية بما تمتلكه من طيف جغرافي واسع ومروحة هائلة من الثروات الطبيعية من نפט وغاز ومعادن، وهي لها حدود برية مع 14 دولة أوروبية وآسيوية، وحدود بحرية مع ألمانيا عبر بحر البلطيق، ومع اليابان عبر بحر أوخوتسك، ومع الولايات المتحدة الأمريكية عبر مضيق بيرنغ، وبهذا الموقع الجغرافي والمساحة الكبرى تمثل روسيا الجسر الأكبر الذي يربط بين أوروبا وآسيا.

الهوية الروسية

إن الهوية الروسية، والدور الروسي العالمي وعلاقة الدولة بالغرب كلها مثلت الأسئلة التي حاولت المدارس الروسية الخمس مقاربتها؛ على المستوى الممارساتي في المنطقة الأوراسية، وما يمكن ملاحظته هو التوظيف الروسي إما التام أو الجزئي

د. تركي صقر

لمفاهيم ونظريات كل مدرسة، سواء فكرة التقارب مع الغرب، وضرورة الإصلاحات الديمقراطية، أو توظيف العوامل الاقتصادية وحتى لعب دور الموازن الأمني الإقليمي، لكن النقطة الفاصلة هي الأثر الكبير للمدرسة الأوراسيانية في توجيه وإدارة السياسة المحلية والخارجية الروسية في الفترة الحالية، خاصة بعد تولي الرئيس فلاديمير بوتين الحكم سنة 2000.

وعلى غرار الانخراط النشط سياسياً لـ/دوغين/ -أحد أهم ممثلي المدرسة التوسعية - كمستشار في مجلس الدوما وتأسيسه للاتحاد الأوراسي كتجسيد رسمي لنظرياته تمكّن ذلك المفكر من إنشاء جهاز عقائدي، فكري واستراتيجي ضخم للخط الجيوبوليتيكي. إن توظيف ألكسندر دوغين في الحرب الروسية الفكرية أدى إلى منحه لقب "عقل بوتين" في مقالة نشرت في مجلة الشؤون الخارجية بعنوان: "عقل بوتين: ألكسندر دوغين والفلسفة الكامنة من وراء ضم بوتين لشبه جزيرة القرم" (2014)، فكيف يمكن لروسيا أن تتبنى المنظور الأوراسي التوسعي في الوقت الذي تعاني فيه من مختلف الضغوطات الداخلية وزيادة حزام الأزمات حول حدودها الجغرافية غير المؤمنة؟!

ووفقاً لنظرية الجغرافيا والتاريخ المشار إليها آنفاً وبحسب هذا الموقع، والمساحة، والثروات الطبيعية، وواقع التركيبة الديموغرافية والاجتماعية في الدولة الروسية نكون أمام المعطيات الآتية:

- 1 - تمتاز الفيدرالية الروسية بالتعددية الهائلة للأقوام والإثنيات التي تستوطن الأرض الروسية، والتي تشد لحمتها القومية الروسية التي تطبع بهويتها الثقافية، وتوجهها الوطني الأساسي روسيا بأسرها.
- 2 - إن روسيا بشرا وأرضاً كانت (وما زالت) مطمعا للغزاة والطفة منذ فجر التاريخ.
- 3 - تميز الروس بقوة الشكيمة والمقاومة الشعبية الشديدة للغزاة والطفة من الشرق ومن الغرب .

الشخصية الروسية عبر التاريخ

عبر مراحل التاريخ المختلفة ومن خلال التحديات الكبرى التي واجهها الشعب الروسي تشكلت لديه روح وطنية قوية وعالية للغاية جعلته يقاوم شتى أنواع الغزو وينتصر منذ الإمبراطورية الرومانية وغيرها على النحو الآتي:

أ - فالإمبراطورية الرومانية التي قامت على النظام العبودي، بعد هزيمة قرطاجة وتفكك نظام الشيوعية البدائية، كانت تنظر إلى الروس «السلافيين» على أنهم ليسوا أكثر من «مزرعة عبيد» متوحشين، حتى إن كلمة (Slav = سلافي) أصبحت مرادفة لكلمة عبد (slave) في عدد من اللغات الأوروبية، والكلمة العربية صقلي (سلافي) انقلبت إلى (esclave عبد) في لغات أوروبية أخرى، وكلمة «موجيك» «فلاح» الروسية أصبحت تعني «روسي = بدائي فظ ومتوحش» في اللغات الأوروبية الغربية، وهذه العنصرية الألسنية موروثه من العهد الروماني. ولكن مع كل قوتها فإن الإمبراطورية الرومانية التي انتصرت على أجدادنا الكنعانيين والأمازيغ والأقباط «المصريين» والإغريق والمقدونيين والصريين والبلغار، وقضت عند سواحل البحر الأسود وأوكرانيا، ولم تستطع أن تخترق الأرض الروسية بفعل شدة المقاومة الشعبية للروس حتى عندما كانوا جماعات متفرقة وقبل أن يصبحوا دولة وشعباً موحدين.

ب - وفي القرون الوسطى المبكرة، حينما ظهرت مملكة الخزر اليهودية على مصب نهر الفولغا وسواحل بحر قزوين، وجرى الغزو المغولي - التتاري للأراضي الروسية، وتأسست مملكتهم المسماة «الأورطة الذهبية»، تحولت تجارة العبيد إلى أحد أهم مصادر الربح لليهود الخزر والمغول والتتار وحلفائهم الطورانيين الأتراك والشركس الذين كانوا جميعاً يصطادون الرجال والنساء والأولاد والبنات الروس، ويبيعونهم إلى اليهود الخزر الذين يبيعونهم بدورهم إلى اليهود العبرانيين، أولئك الذين كانوا يصنفونهم و«يحضرونهم» ويبيعونهم كغلمان وخصيان وعبيد وإماء وبغايا إلى الأمراء والميسورين والقوادين، من الأندلس حتى سور الصين. وكانت الإماء والبغايا في الأصقاع العربية يسمين «روميات»، «أي إغريق ومقدونيات»، والواقع أن قلة من هاتيك البائسات كن «روميات». أما الأغلبية فكن «سلافيات» روسيات ولكن الانتفاضات الروسية المتتالية قضت على مملكتي

اليهود (الخزر والمغول والتتار) وأخرجتهما من التاريخ، ومن تبقى من اليهود الخزر والمغول والتتار يعيشون الآن في روسيا كمواطنين مسلمين لهم كل حقوق المواطن الروسي، ولا يغير من جوهر العلاقة الوطنية الروسية مع عامة اليهود نشوء الحركة الصهيونية في صفوفهم، الموالية للغرب الاستعماري والمعادية لروسيا التي أنقذت يهود أوروبا كلها من الإبادة التامة على أيدي النازية خلال الحرب العالمية الثانية.

ج - وبعد أن سحق الروس المغول والتتار والطورانيين والخزر، وتخلصوا من نيرهم مرة وإلى الأبد، غزاهم «الصليبيون الشماليون» في الوقت ذاته الذي غزا فيه «الصليبيون» الشرق، ومكثوا في روسيا حوالي 250 سنة، ومع أن الروس كانوا أفقر وأضعف بكثير من العرب والمسلمين، وكانوا نصف جياح نصف عراة، فإنهم سحقوا سحقا «الصليبيين الشماليين» منذ أول وصولهم إلى الأراضي الروسية. وحتى أيامنا هذه فإن السويديين والإسكندنافيين والبلطيقين ناهيك عن الألمان والبولنديين، يرتجفون لدى سماع كلمة «روسي».

د - وفي التاريخ القريب شن نابليون حملته على رأس جيش مؤلف من نصف مليون جندي هم زهرة شباب فرنسا في حينه، فلم يرجع معه منهم أحياء سوى بضعة آلاف. ولو لم يهاجم نابليون روسيا لاستطاع الهيمنة على أوروبا كلها.

هـ - وربما لا حاجة للتذكير بأن هتلر احتل غالبية الأرض الأوروبية في بضعة أشهر وسخر اقتصادياتها وعمالها للعمل لصالح ألمانيا، كي يستطيع تعبئة أكبر عدد ممكن من الشباب والرجال الألمان لشن «الحرب الصاعقة» ضد روسيا، حيث وصل الجيش الألماني إلى مسافة 40 كم من موسكو ذاتها، ولكن العملاق الشعبي الروسي نهض من كبوته وحرر أرضه وسحق الأفعى الهتلرية في برلين ذاتها.

و - وعلينا أن لا ننسى أن الجيش الأحمر «الروسي أساساً» الذي سحق الهتلرية وحرر أوروبا والعالم منها، هو نفسه الذي، بعد استسلام ألمانيا في أيار 1945، سحق الجيش الياباني الذي كان يحتشد بالملايين في الصين وكوريا، وحرر شعوب شرق آسيا والعالم من الفاشية اليابانية أيضاً.

4 - أمام هذه المعطيات التاريخية من الطبيعي أن الشعب الروسي ينظر إلى نفسه أنه محرر شعوب العالم من النازية والفاشية في الشرق والغرب، والآن لو اجتمعت كل قوى الإمبريالية واليهودية والطغيان والعدوان في العالم فإنها لن

تستطيع أن تنال من روسيا بل ستدفن في مكانها بأسرع مما نتصور، والعقيدة العسكرية الروسية الحالية تقول: لن نكون معتمدين ولكن الضربة الأولى ستكون لنا، وهي ستكون الضربة الأولى والأخيرة؛ لأنها ستكون ضربة نووية ساحقة ماحقة من البحر والبر والجو والفضاء الكوني.

بهذه الروح لرد العدوان والظلم، المتأصلة في الشعب الروسي، تتبنى الإنلجنسيا والنخبة والقيادة الروسية، وعلى رأسها فلاديمير بوتين، فكرة الاستراتيجية «الأوراسية»، الداعية إلى التعاون المفتوح والشامل، اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً وأمنياً وعسكرياً، بين شعوب آسيا وأوروبا جميعها، واستطراداً شعوب العالم الطامحة إلى الاستقلال والتحرر أيضاً، وأن تضطلع روسيا بدور مركزي في هذه العملية التاريخية الكبرى، على غرار ما اضطلعت به في تحرير شعوب العالم من النازية والفاشية في الحرب العالمية الثانية.

ركائز الاستراتيجية الأوراسية:

أما الركائز الرئيسة التي تقوم عليها الاستراتيجية الأوراسية لروسيا فهي:

- 1 - التقارب والتعاون الأخوي مع الجمهوريات السوفياتية السابقة.
- 2 - توسيع التعاون الوثيق سياسياً وثقافياً واقتصادياً وعسكرياً وتعميقه مع الصين الشعبية والهند بوصفهما أكبر دولتين في العالم، والعمل على إزالة الخلافات بين هاتين الدولتين والتقريب بينهما لصالح شعبيهما العظيمين وشعوب العالم قاطبة.
- 3 - احتواء وتجاوز الاختلافات السياسية والإيديولوجية والدينية مع البلدان العربية والإسلامية، دولاً وشعوباً، ومد يد المساعدة لهذه الدول، بكل أشكالها، والتقريب فيما بينها ودفعها إلى توحيد صفوفها والتحول إلى قوة تحررية فاعلة في تقرير مصير العالم المعاصر.
- 4 - هذا من جهة ومن جهة ثانية مد يد الصداقة إلى شعوب أوروبا ودفعها إلى طي صفحة الماضي السوداء المتعلقة بالتراث الاستعماري والحرب الباردة. وتتحدى روسيا بالكثير من الصبر وطول الأناة لتحمل جميع الاستفزات ومظاهر العداء الأوروبي غير المسوغ ضد روسيا، وهذا ما ينبغي التوقف عنده بشكل خاص.

العقدة التركية في الفضاء الأوراسي

يبدو أن السياسة التركية مقبلة على تحولات هامة وربما انعطافات كبيرة بعد الانقلاب الفاشل الذي اتهم به فتح الله غولن المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية وتنظيمه المسمى الكيان الموازي داخل مفاصل الدولة التركية، وكان قد سبق الانقلاب تقديم اعتذار من رجب طيب أردوغان إلى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عن إسقاط طائرة السوخوي 24 فوق الأراضي السورية في نهاية عام 2015، وهو ما أثار غضب واشنطن التي كانت مرتاحة لتوتر العلاقات بين موسكو وأنقرة وكانت تخطط لاستغلال هذا التوتر بتحريض تركيا للضغط على روسيا في القرم من خلال تحريك مجموعات سكانية كبيرة من أصول تركية تعيش هناك.

التوجه أن تركيا دولة أطلسية يجب استعادتها إلى أوراسيا هذا هو مختصر العقيدة الأوراسية تجاه أنقرة، والتي ذكرها الباحث الروسي ألكسندر دوغين في كتابه "أسس الجيوبوليتيكا". فتركيا، تشكل "ضرساً غربياً مغروساً في الجرف الأوراسي، أي حافة اليابسة، يجب تشذيبه إذا ما استحال استرجاعه، وهناك ما يسوغ ذلك، وعند مراقبة الحدود الغربية لروسيا يمكن القول: إن منافذها نحو أوروبا تعدُّ شبه "مقفلت" بسبب تمدد "الناتو" إلى الدول التي تقع على الحدود الغربية لها، ولا شك في أن افتعال الأزمة الأوكرانية كان هدفه الأساس، بالإضافة إلى الضغط عليها بسبب مواقفها "المتشددة" تجاه سورية، هو الإطباق على ما تبقى من النفوذ الروسي غرباً.

هذا الأمر يجعل من تركيا الممر الإيجاري والوحيد للولوج إلى المياه الدافئة عبر مضيق الدردنيل والبوسفور إلى بحر إيجه وبعد ذلك إلى المتوسط، والتي يمكن القول: إن موسكو قد استعاضت عنها، بشكل نسبي، من خلال الاتفاق مع إيران على حفر قناة من بحر قزوين المغلق إلى الخليج العربي، ما يؤمن خروج الأسطول ودخوله من روسيا وإليها. من هنا بادر الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إلى محاولة استيعاب تركيا بعد استعادة القرم عام 2014، ولا سيما بعد رفض تمرير خط غاز

“السييل الجنوبي” عبر بلغاريا والاستعاضة عنه بخط “السييل الأزرق” ثم بـ “السييل التركي”؛ حيث ترافق ذلك مع الكثير من الإغراءات الاقتصادية سواء بإعطائها امتيازات في سعر الغاز، وإنشاء محطة للغاز المسيل بينها وبين اليونان بغية توصيله إلى أوروبا من بوابة أثينا، ومحطة كبيرة للطاقة، أو بتثييط القطاع السياحي التركي الذي يشكل العنصر البشري الروسي فيه عنصراً مهماً وفعالاً.

حل العقدة التركية:

وبعد إسقاط القاذفة الروسية “سوخوي -24” فوق الأراضي السورية في 24 تشرين الثاني من عام 2015، أيقنت روسيا بأن استعادة تركيا إلى المحور الأوراسي، في وضعها الحالي قد يكون شبه مستحيل؛ ما جعلها تفكر بطريقة مختلفة تكمن في تطويق تركيا ومحاصرتها ووضعها في “فك” تكون غايته إضعافها بطريقة ذكية بعيدة عن أي استجلاب مباشر للعنصر الأطلسي، وهو الأمر الذي أرادته تركيا من خلال إسقاطها للقاذفة الروسية.

فبعد وقف التعاون العسكري والاقتصادي، ووقف تبادل البعثات، ووقف “السييل التركي” وتحذير المواطنين الروس من الذهاب إلى تركيا، كان لا بد من أن تكون هناك إجراءات عسكرية روسية ولو بطريقة غير مباشرة، وأهم ما يمكن ملاحظته في هذا المجال:

- 1 - الوجود الروسي في البحر الأسود؛ حيث مكنت قاعدة سيفاستوبل الجيش الروسي من المحافظة على الوجود العسكري الحيوي في تلك المنطقة وتأمين الخاصرة الروسية فيها، والوجود على الحدود الشمالية لتركيا.
- 2 - الوجود العسكري الروسي في المتوسط بوساطة الغواصات الروسية والأسطول البحري الروسي، والمرور عبر مضيقي تركيا، وعدم التواني في الاشتباك المباشر وإطلاق النار التحذيري مرّات عدّة على سفن اقتربت من وحدات وقطع بحرية روسية في بحر إيجه..
- 3 - وجود العسكرية الروسية في قبرص التي تشكل مركزاً حيوياً دائماً لها في المتوسط، وإن كان الهدف الأصلي منها الإفلات من “طوق” الدرع

الصاروخي الذي تعدُّ تركيا أحد مراكز الصواريخ الدفاعية للحلف فيه. غير أنه يمكن الضغط عليها من هذا الباب، خصوصاً مع وقوع قسم من الجزيرة تحت النفوذ التركي غير المباشر.

4 - الوجود العسكري الروسي في سورية والمحاولة الدائمة لقطع الطريق على تسلل الإرهابيين من الجهة التركية، والعمل على إقفال هذه الحدود بشكل جدي وكبير. فعند التمعن في الموضوع، يمكن القول: إن روسيا قد أصبحت على حدود تركيا من الجنوب بشكل مباشر وفعال.

5 - وفي الشأن السوري أيضاً؛ لا يمكن إغفال المطالبة الروسية بإشراك الأكراد في المحادثات التي تعقد في جنيف من أجل تسوية المسألة السورية، ودعمهم بشكل كبير. وهو ما حدا بتركيا إلى استباق الوضع وفتح المعركة مع الأكراد لما في ذلك من حساسية وخشية كبيرة لديها من إقامة منطقة كردية تستجلب معها، مستقبلاً، مناطق الوجود الكردي في الداخل.

6 - إن دعم تركيا لأذربيجان، العضو المنسحب من منظمة معاهدة الأمن الجماعي، بشكل علني ضد أرمينيا في النزاع الدائر في إقليم قره باغ، علاوة على النزاع التاريخي حول قيام السلطات العثمانية بمجزرة بحق الأرمن، هو محاولة لقطع الاستراتيجية الروسية بتشكيل اتحاد أوراسي حيوي، ما يستدعي رداً روسياً بشكل أو بآخر إلى ذلك، تخشى روسيا من وصول الإرهابيين إلى أراضيها عبر القوقاز بإيعاز تركي، فهي تستبقي ذلك بوجودها العسكري هناك أيضاً.

7 - تعد أرمينيا جزءاً أساسياً من منظمة معاهدة الأمن الجماعي التي برأينا ستكون "الخلف" العسكري لحلف "وارسو"، الذي تم حله قبيل تفكك الاتحاد السوفياتي، إذ قامت روسيا بتعزيز قواتها العسكرية الموجودة في هذا البلد، ولا سيما على الحدود الشرقية لتركيا. فأني نيل من أرمينيا أو أي دولة مشاركة في هذه المنظمة هو ضربة لروسيا في المقام الأول.

مستقبل الأوراسية :

حول مستقبل روسيا والأوراسية ينبغي أن نبدأ بمعطياتها وتنبؤاتها الديمغرافية، مع أن تاريخ مثل هذه المعطيات والتنبؤات زاخر بالأخطاء، وهو يتوقف عند قضية عدد سكان روسيا القليل نسبة إلى أراضيها الشاسعة، كما إلى طموحها في أن تصبح في مرتبة القوة العظمى، وتأدية مهمة واجبة عليها.

في هذا السياق، فإنه ينبغي لأي نقاش حول مستقبل روسيا أن يتعهد بدراسة وتحليل مفهوم روسيا الأبدية ذي الأصداء السيكلوجية وتحليله، والمنطوي على رسالة مسيحية عظيمة يجب تنفيذها. فمع سقوط الاتحاد السوفياتي برزت هنالك حاجة لاعتماد إيديولوجيا جديدة في عهد بوريس يلتسن، كانت هنالك منافسة لصياغة مشروع قومي جديد، وتجدد هذا المسعى في عهد بوتين.

ويتساءل المفكرون عن تعريف للشخصية الوطنية الروسية ولمشروع روسيا الغد، وهل يبقى بحثاً غامضاً، وما هي آفاق الاعتدال والوسطية؟ ما هي آفاق تخفيف حدة العداة وانعدام الثقة تجاه الغرب؟ ما هي آفاق استعادة -ولو جزء بسيط على الأقل - قيم الحرية والإنسانية؟ ويبدو أن النظام في روسيا صمد في وجه شيطنة ماكينة الإعلام الغربي الذي حاول تشويه الحكم في الدولة الروسية، وأضحت تظهر الحقائق على الملأ.

أما عن (المستقبل الاقتصادي) لروسيا، فيورد لأكوير سيناريوهات متفائلة ومتشائمة عدة، لكنها تركز كلها على أسعار النفط والغاز العالمية، وحاجة أوروبا لهاتين المادتين؛ فضلاً عن سياسات روسيا الداخلية في الإنفاق على القوات المسلحة والصحة والتعليم، والتي تتأثر بشكل عكسي؛ فزيادة الإنفاق على الجيش تعني خفضاً في ميزانيات الصحة والتعليم، وهناك المخصصات الروسية المالية الضخمة للقرم (بعد ضمها وفي المساعدات المقدمة لأرمينيا وقرغيزيا وطاجيكستان للإبقاء على القواعد العسكرية الروسية في هذه البلدان، ولأهداف أخرى).

يقول عراب الأوراسية ألكسندر دوغين: الحرب في سورية هي المرحلة الثالثة من الصراع بين الأوراسيين والأطلسيين، بعد حربي الشيشان وجورجيا، وهي بالتالي قد تكون اللحظة النهائية في انكشاف الصراع مع الغرب، فإذا قبلت

د. تركي صقر

روسيا بالدور الأميركي في سورية وتخلت أو تراجعت هناك، سيكون ذلك عصفاً شديداً بهوية روسيا السياسية، وإذا حدث العكس ستكون نهاية الولايات المتحدة كقوة عظمى متفردة.

ويضيف دوغين: هزيمة روسيا في سورية، ستتبعها الحرب في إيران والقوقاز، مما يعني أنه ينبغي على بوتين عدم التخلي عن الدولة السورية، وإلا سيكون ذلك انتحاراً جيوسياسياً لروسيا في سورية، الحرب لا تقبل حلاً وسطاً أو تفاهماً، بل هي الطريقة الوحيدة لتأكيد الوقائع، ويبدو أن القيادة الروسية مصممة على المضي بمعركة محاربة الإرهاب والانتصار فيها، والوقوف إلى جانب إيران بكل قوة بعد الانسحاب الأميركي من الاتفاق النووي، وضمها إلى الفضاء الأوراسي الذي سيشمل أيضاً الصين والقوة الهائلة لمنظمة شنغهاي، مما يعني ضمان مستقبل الأوراسية ونجاحها حتماً.

مراجع وهوامش:

- 1 - صحيفة الوفاق النسخة العربية (الوفاق الإيرانية أرن لاين 19 - 6 - 2018)
- 2 - <https://www.aljumhuriya.net/ar/35028> - موقع صحيفة الجمهورية لبنان .
- 3 - كتاب بوتين والبوتينية للمؤرخ المخضرم وولتر لاكوير".
- 4 - موقع موضوع كوم الكاتب هايل الجايز، تشرين الأول 2016.
- 5 - موقع المعهد المصري للدراسات، أمينة مصطفى دلة 27 سبتمبر، 2016
- من الناحية الجغرافية يعود اسم الكتلة لتكوين من كلمتي أوروبا وآسيا يحدها من أقصى الغرب جزر إيرلندا والمحيط الأطلسي الذي يمتد بذراعه الجنوبي وهو متمثل في البحر المتوسط بأحواضه المختلفة، ومن الشرق مضيق بيرنج وبعض الجزر مثل كامشكا وسخالين والمحيط الهادي، ومن الشمال تحدها جزر فرانس جوزيف والمحيط المتجمد الشمالي، ومن الجنوب جزر تيمور والمحيط الهندي بذراعيه المتمثلين في البحر الأحمر والخليج العربي. كما يوجد أيضاً تقسيم آخر هو أوراسيا الشرقية والغربية. تمثل "أوراسيا" الغربية أوروبا والشرق الأوسط، كما يضيف إليهما بعضهم شمال أفريقيا لكون المنطقة منفصلة عن بقية أفريقيا بوساطة الصحراء الكبرى. وتمثل أوراسيا الشرقية بقية آسيا.
- دوغين (1962) عالم سياسي روسي، عمل مستشاراً للبرلمان الروسي خلال سنوات 1998 - 2003، وهو رئيس خبراء الجيوبوليتيكا التابع للمجلس الاستشاري المتخصص بشؤون الأمن القومي التابع لرئاسة مجلس النواب الروسي، وعضواً رئيساً في حزب روسيا المتحدة الذي كان يقوده سيرغي ناريشكي. يعدّ دوغين منظمياً رئيساً في كل من الحزب الوطني البلشفي، الجبهة الوطنية البلشفية وحزب أوراسيا. كما أسس دوغين حركة أوراسيا العالمية.
- ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا، مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ترجمة، عماد حاتم، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى 2004، ص ص 256 - 257.

دولة فرسان مالطا

♦ زبير سلطان قدوري

في شارع هدى شعراوي وسط القاهرة توجد سفارة غريبة لم تسمع بها من قبل، حيث ترى لوحة نحاسية كتب عليها باللغة العربية (سفارة فرسان مالطا) وإلى جانبها لوحة كتبت باللغة الإنكليزية (SOVEREIGN MILITARY ORDER OF MALTA) وترجمتها "سفارة النظام العسكري ذي السيادة المستقلة لمالطا"، هذه السفارة لم تسلط عليها الأضواء إلا بعد احتلال العراق على الرغم من وجودها في مصر منذ عام 1980.

وتم استحضارها إعلامياً، بعد ما تم نشره في العديد من الصحف ووسائل الإعلام العربية والدولية عن علاقة حميمة ما بين هذه الدولة والشركات الأمنية العاملة في العراق، وهذه الدولة هي ما تبقى من مخلفات الحروب الصليبية، وقد اعترفت بها بحسب المصادر الصحفية ما بين (96) دولة إلى (120) دولة، منها ثماني دول عربية من بينها مصر ولبنان والأردن والسودان وموريتانيا.

♦ عضو اتحاد الكتاب العرب، كاتب وباحث من سورية.

وقد احتج عضوان في مجلس الشعب المصري في 2008/4/30 على وجود سفارة تلك الدولة في مصر، بعد أن كشفت وسائل الإعلام عن دورها المعادي للعرب والمسلمين في العراق وأفغانستان والسودان، وقد استغرب (عبد اللطيف قطب) عضو مجلس الشعب المصري وجود هذه السفارة التي تمثل منظمة دينية تقوم بأعمال مشبوهة، وتساءل العضو (حازم فاروق): كيف تعترف مصر بكيان دولة دينية؟

واستغرب النواب رد السفير (محمود عوف) مساعد وزير الخارجية المصري للشؤون النيابية والقانونية على ما تم طرحه، حين قال: إنه لا يدري الظروف التي دعت إلى قيام علاقة دبلوماسية مع "فرسان مالطا" منذ ثمانينيات القرن الماضي، وقال: (إن فرسان مالطا دولة لها سيادة، ولكنها بلا شعب، وإنها عبارة عن جماعة كاثوليكية كان لها دور أيام الحروب الصليبية) (1)، والغريب أن يتم الاعتراف بهذه المنظمة الدينية على أنها دولة ذات سيادة، على الرغم من عدم وجود أرض لها تقيم عليها، ولا وجود شعب لها، وكل مساحتها منزل في الفاتيكان، دولة لها كل حقوق الدول في العالم، تعترف بها دول، ولها سفارات في عواصم كثيرة، وتشارك في العديد من المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة.

ترفع هذه الدولة شعارات ظاهرية ذات طابع خيرى إنساني، وبأنها تقدم المساعدات الطبية والعلاجية لبعض المرضى في عدد من المستوصفات التي أنشأتها، وتشارك في نشاطات اجتماعية وإنسانية، مما يكسبها الصفة الخيرية الإنسانية، فنجحت بهذه الصفة بالدخول إلى العديد من البلدان، ومنها بلدان عربية وإسلامية. لكن ما كشف عن دورها التخريبي في بعض البلدان العربية والإسلامية من خلال علاقاتها بمرتزقة الشركات الأمنية الخاصة، وفي مقدمتهم شركة (بلاك ووتر)، يدعو الدول العربية والإسلامية إلى إعادة النظر بالعلاقة مع هذه الدولة، وهذا يدعونا إلى المراجعة التاريخية لنشوء هذه الدولة، لتتعرف عن سبب العلاقة بينها وبين المرتزقة.

نبذة تاريخية عن فرسان مالطا:

تعود بداياتها الأولى إلى القرن الحادي عشر ميلادي، عندما شكل التجار الإيطاليون في القدس عام 1070، منظمة بهدف القيام بالعمل الخيري الإنساني، أما السبب الرئيس لتشكيلها فهو تهيئة المناخ اللوجستي للقوات الأوروبية للاستيلاء

على بلاد الشام عامة وفلسطين والسواحل الشامية خاصة، وقد سبق تشكّلها ظهور العديد من المنظمات التي تدّعي بأنها نشأت للعمل الخيري في القدس، وأطلقت على جميع منتسبي تلك التنظيمات اسم (الفرسان).

ومعظم المنظمات التي شكّلت في ذلك القرن تبدو من خلال المصادر التاريخية، بأن تأسسها في القدس كان قبيل بدء الحروب الصليبية، لم يكن تأسيساً عفويّاً، بل كان وفق خطط غربية أوروبية وضعها التجار الإيطاليون، أي لم يكن التأسيس إلا تمهيداً لتنفيذ خطة للاستيلاء على فلسطين، التي يحتاج تنفيذها إلى وجود عناصر مساندة في الداخل، توفر لها النجاح، وتسهل لها عملية الاحتلال.

من هذا المنظور التاريخي نتعرف إلى المسببات الحقيقية التي دفعت التجار الإيطاليين لتشكيل هذه المنظمة وغيرها من المنظمات، وبعد ذلك حصلوا من الحكام السلجوقيين في القدس على حق إدارة الكنيسة اللاتينية، وتذرع التجار الإيطاليون بأن هدف تأسيس هذه المنظمات لرعاية المرضى من الحجاج النصارى الذين يؤمنون الأماكن المقدسة، والذين تزايدت أعدادهم قبل بدء الحروب الصليبية.

وبعد إنشاء المنظمة أعلن المؤسسون وضع المنظمة تحت لواء النظام الديرى البندكتي الذي كان معروفاً آنذاك في غرب أوروبا. وبعد مدة من الزمن أصبحوا يتبعون البابا في روما مباشرة، كما انقطعت تبعيتهم للحكام المسلمين حكام القدس الفعليين آنذاك.

وتبين المصادر التاريخية أن المؤسسين كانوا تجار (أمالفي) الإيطالية، وجعلوا مقرها في مستشفى (القديس يوحنا) الملحق بالكنيسة اللاتينية، قرب كنيسة القيامة، لهذا أطلقوا عليهم في البداية اسم (Hospitallers)، وترجمتها (فرسان المستشفى)، تمييزاً عن هيئات الفرسان التي كانت في القدس كـ(فرسان المعبد) و(فرسان التوتون) وغيرهم، وانتشرت تلك التسمية باللفظة الأجنبية، وغدت أكثر انتشاراً في الوسط السكاني في القدس، ولدى بعض كتاب التاريخ العرب، كما تم تسميتهم بـ(الإسبارتية) أو بـ(الهوسبالتيين).

وبعد أن وضع فرسان الإسبارتية أنفسهم تحت لواء النظام الديرى البندكتى، اعترف البابا (باسكال الثانى) بتتظيمهم رسمياً فى 15 / شباط / 1113، وبعد اعتراف البابا بدأ الإسبارتية يتلقون التمويل المالى لتتظيمهم من البابا، وكذلك المساندة الاجتماعية والسياسية من تجار (أمالفي) الإيطالية، وحكام (البروفانس) فى فرنسا.

وقبل بدء الحروب الصليبية توزع فرسان مستشفى القديس يوحنا إلى أربعة تتظيمات:

- 1 - فرسان العدل: الذين هم من أصل نبيل (نبلاء)، وأصبحوا فرساناً.
- 2 - القساوسة: يرعون التتظيم روحياً ودينياً.
- 3 - إخوان الخدمة: ينفذون الأوامر الصادرة عن النبلاء والقساوسة.
- 4 - الجوادين (Danats)، وهم أعضاء الشرف الذين يقدمون الأموال والأملاك للفرسان.

وقد تم تخصيص عشر دخل كنائس القدس لفرسان القديس يوحنا، وبفضل تلك الأموال والهيئات والأملاك والإعانات تطورت منظمة الفرسان عدداً، وازداد نفوذها، حتى غدا موقعها كنيسة فى داخل كنيسة القدس.

لماذا شكل التجار الإيطاليون فرسان الإسبارتية؟

تم تشكيل تلك المنظمات فى القدس، فى وقت كانت الدولة السلجوقية تعاني الضعف فى نهايات حكم (ملك شاه)، وكان التجار الإيطاليون أكثر معرفة بوضع هذه الدولة السلجوقية، فهم كانوا يتغلغلون ليس فى الوسط التجارى فقط، بل فى الوسط الاجتماعى والسياسى والعسكرى فى تلك الدولة، وغدوا مع مرور الوقت يملكون نفوذاً واسعاً فى الدولة، بسبب ما يملكون من القدرات المالية والتجارية فى دولة عمها الفساد السياسى والإدارى والعسكرى.

ازدادت هذه الدولة ضعفاً بعد وفاة (ملك شاه)، بسبب الصراع الدموى على السلطة بين أبناء ملك شاه وأخيه (تتش) صاحب دمشق، انتهى هذا الصراع إلى تمزق الدولة السلجوقية إلى خمس ممالك متصارعة، سلطنة سلجوقية لـ(بركياروق بن ملك شاه)، ومملكة خراسان، ومملكة حلب، ومملكة دمشق، وسلطنة سلاجقة الروم (2)

كان التجار الإيطاليون يشعرون بالخطر الذي يهدد إماراتهم ، بسبب ازدهارها الاقتصادي والمالي عن باقي أوروبا ، حيث غدت مدنهم الكبرى دولاً أمثال: البندقية، وباري، ونابولي، وأمالفي، وجنوى، وبيزا، تتميز عن كل إمارات وممالك أوروبا بالفنى والازدهار التجاري والمالي والثقافي، وبالعلاقات التجارية الضخمة مع بيزنطة والعالم الإسلامي، وخاصة الدولة السلجوقية. كانت أشد الأخطار التي تتهددهم من الجرمانيين الذين كانوا في الشمال والوسط الإيطالي، يضاف إليهم طمع النورمانديين في الجنوب، (3) مما دفع هؤلاء التجار إلى دفع هذا الخطر عن بلادهم، وتوجيهه نحو البلدان الإسلامية، بعد القيام بحملة إغراء إعلامية مكثفة في أوروبا، تحدثت عن غنى الشرق وما يملك من كنوز، وسهولة الحصول عليها.

يضاف إليها حملة إعلامية دينية متشددة تدعو للاستيلاء على القدس، بذريعة تحرير المقدسات المسيحية من المسلمين، وكان شعارها حماية قبر المسيح من الكفار، والملاحظ أن تأجيج تلك الحملات في الوسط الأوروبي تم بعد أن استولى النورمانديون على مدينتي (أمالفي) في عام 1071، ثم مدينة (باري) 1077 الإيطاليتين، مما دفع التجار الإيطاليين إلى تأجيج الحملات الدعائية التي تدعو إلى الإسراع بتسيير الجيوش والقوات الشعبية إلى الأراضي المقدسة؛ بعد أن شعروا أن خطر النورماندي قد بدأ يهدد بقية المدن الإيطالية الأخرى.

فرسان الإسبارتية والحروب الصليبية:

كانت البدايات الأولى لانطلاق الحملات الصليبية نحو بلاد الشام على خلفية الاتفاق الذي تم بين الإمبراطور البيزنطي (أليكسيس الأول) (Alexis)، وبين البابا (أوربانوس الثاني) (Urbain) عام 1089، الذي تضمن تحالفاً عسكرياً وسياسياً يقدمان لبعضهما المساعدة العسكرية ضد الإمبراطور (هنري السادس) أولاً، وضد النورمانديين ثانياً(4).

وبعد هذا الاتفاق طلب الإمبراطور (أليكس) النجدة من البابا؛ لوقف زحف السلاجقة نحو إمبراطوريته، فاستغل البابا (أوربانوس) هذا الطلب ليغير وجهة نظر القوات الجرمانية والنورماندية وغيرها من الاستيلاء على المدن الإيطالية الغنية

التجارية، لتتوجه نحو عدو مشترك هو الدولة السلجوقية، وتحرير القدس والمقدسات المسيحية، وبذلك يحقق البابا مجموعة من الفوائد منها:

- أولها: إنقاذ المدن الإيطالية الغنية من أطماع الجرمان والنورمانديين التي تشكل أهم موارد البابوية المالية.
- وثانيها: استخدام هذه القوات المتوحشة والفقيرة في تأسيس مملكة مسيحية في الشرق العربي تابعة للبابا.
- وثالثها: تحرير التجارة الإيطالية من سيطرة المسلمين على البحر المتوسط(5).

بدأت أولى الحملات الصليبية من أوروبا في عام 1097، وبعد عامين على انطلاقها تم احتلال القدس في 15 تموز 1099، وكُتِب التاريخ الأوروبية والعربية زاخرة بالحديث عن المجازر الدموية التي ارتكبتها الفرنجة في القدس، وكذلك المجازر التي جرت في المدن العربية التي مر بها الغزاة، وقد عدها المؤرخون الغربيون مجازر لم يشهد لها تاريخ العالم مثيلاً.

وممن كتب عنها المؤرخة (سيسال موريسون) في كتابها المسمى (تاريخ الحرب الصليبية الأولى)، وقد جاء في الكتاب الآتي: (لاحق الحجاج الذين دخلوا القدس المسلمين حتى هيكل سليمان وذبحوهم هناك [...] حيث جرت مجزرة رهيبة إلى درجة أن جماعتنا مشوا في الدماء حتى الكاحل [...] وجاب الصليبيون أنحاء المدينة كلها، فنهبوا الذهب والفضة والجياد والبغال، وسلبوا المنازل المليئة بالثروات، ثم انطلق جماعتنا، سعيدين جداً، ويبكون من الفرح، نحو قبر المسيح مخلصنا يعبرون عن عبادتهم ووفاء ما عليهم تجاهه)(6)

شارك فرسان (الإسبارتية) في المجازر التي ارتكبت في القدس بعد احتلالها مع القوات الغازية، فتشير كتب التاريخ أن فرسان (الإسبارتية) كانوا أدلاء الغزاة وشاركوهم في القتل والنهب، وكانوا يقودون الغزاة الغريباء عن المدينة إلى أماكن العرب المسلمين، وتجمعاتهم مع نساءهم وأطفالهم، وهم الذين دلوهم على تجمع عشرات الآلاف في المسجد الأقصى خوفاً من الغزاة. وتشير المصادر التاريخية الغربية إلى أن الذين قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، حتى غاصت أرجل الخيل بدمائهم، كما قال رواة هذا الحدث.

وبعد أن احتل الفرنجة القدس وعدداً من بلاد الشام، كافأ الغزاة فرسان الإسبارتية لما قدموه من مساعدات قيمة للصليبيين، فأعاد رئيس المستشفى (جيرارد دي ما رتيز) تنظيمهم من جديد، وأطلق عليهم اسم (رهبان مستشفى القديس يوحنا)، وأبقاهم الغزاة قوة عسكرية واجتماعية وأمنية بغية الاستفادة منهم، لأنهم أكثر دراية منهم بأحوال البلاد وسكانها.

وبعد وفاة (دي ما رتيز) أعاد خليفته (ريموند دو بوي) مرة أخرى تنظيم الفرسان، حيث تحولوا نهائياً إلى تنظيم عسكري مسلح عام 1130، بارك البابا (أنوست الثاني) إعادة تنظيم فرسان الإسبارتية أو الهوستاليين، لما أظهره من عمل عسكري ومدني كبير لإبقاء القدس محتلة بيد الصليبيين، ورأى أن استمرار الحيوية في الجيوش الغازية يعود إلى فرسان الإسبارتية أو الهوستاليين إلى جانب فرسان المعبد / Templars / قبل بدء الغزو الصليبي للأراضي المقدسة.

وهكذا تحولت هذه التنظيمات التي نشأت قبيل الغزو إلى منظمات عسكرية مرتزقة في خدمة المحتل، كما هي حال الشركات المرتزقة اليوم، التي تقاتل في العراق وأفغانستان والصومال والسودان وغيرها من بلدان العالم التي تعاني من أطماع المشروع الأمريكي الصهيوني، واستمر عمل فرسان الإسبارتية في خدمة الاحتلال الصليبي على القدس حتى آخر يوم، وتذكر بعض المصادر التاريخية أن الخدمات الكثيرة التي قدمها هؤلاء المرتزقة هي التي أطالت في احتلال القدس.

فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس:

انهار تنظيم فرسان الإسبارتية بعد معركة حطين عام 1187 التي قادها (صلاح الدين الأيوبي)، تلك المعركة التي ألحقت الهزيمة الكبرى بالاحتلال الصليبي، والتي أدت إلى تحرير القدس. وقد كتب المؤرخون عن تسامح (صلاح الدين الأيوبي) للصليبيين حين دخل القدس، وذكروا أن (صلاح الدين) لم يسامح فرسان الإسبارتية بل نكل بهم، لأنهم خانوا وطنهم، لما ارتكبوه من جرائم بشعة بحق سكان فلسطين عامة وسكان القدس من المسلمين خاصة، وما قاموا به من قتل وحرق لبيوت وسكان المناطق العربية الأخرى.

انتقل فرسان الإسبارتية من القدس بعد تحريرها إلى صور، ثم اضطروا إلى الرحيل إلى منطقة (المرج) في (ليبيا)، ثم عادوا إلى عكا التي كانت لا تزال تحت

احتلال ما تبقى من تنظيمات الفرسان والقوات الصليبية، فطردتهم القوات العربية مع ما تبقى من الغزاة الصليبيين عن الأرض العربية، فأخرجتهم من عكا، وأجبرتهم على الجلاء عن بلاد الشام نهائياً عام 1291، حيث انتقلوا إلى مدينة (ليماسول) في قبرص.

في حين توجهت بقية تنظيمات فرسان الإسبارتية نحو شمال أوروبا، فأطلقوا عليهم اسم (التيوتون)، وهناك ركزوا نشاطهم الديني والسياسي بالقرب من شواطئ البحر البلطيك، كما نزع أيضاً عن الأراضي العربية فرسان المعبد (الداوية) إلى بلدان جنوب أوروبا وخاصة في فرنسا، ولكن نتيجة لما قاموا به في تلك البلدان من نهب وسلب، وتذمر السكان الفرنسيين منهم ومن أعمالهم المشينة، اضطر الملك الفرنسي فيليب الرابع أن يشن حرباً ضروساً ضدهم، وأن يطردهم من الأراضي الفرنسية ما بين أعوام (1307 / 1314).

أما فرسان الإسبارتية فوصلوا ليماسول في قبرص في عام 1291، فأعادوا فيها تنظيمهم العسكري، و تحولوا إلى قراصنة في البحر المتوسط، يعترضون سفن المسلمين، ويقومون بنهبها، وقتل ركابها وبحارتها. ونتيجة لأعمال القرصنة ازدادت ثرواتهم وقوتهم العسكرية والمالية، مما دفع رئيس الفرسان آنذاك (وليم دي فاليت) إلى تأسيس دولة قوية لهم في جزيرة (رودس) التي كانت وقتها تخضع للسيادة العربية الإسلامية، إلا أنه مات قبل أن يحقق حلمه، ولكن أخيه (توك دي فاليت) الذي تولى مكانه نفذ ما كان يخطط له (وليم فاليت)، فشن حرباً صليبية جديدة على سكان جزيرة (رودس) الذين كانوا من العرب المسلمين، امتدت الحرب ثلاثة أعوام تقريباً ما بين (1308 – 1310). فاستطاع فرسان الإسبارتية في عام 1310 الاستيلاء على جزيرة رودس، فأخرجوا العرب المسلمين منها، وأسسوا فيها دولة أطلقوا عليها اسم (دولة النظام السيادي لفرسان رودس). ومن ذلك التاريخ تغير اسمهم من (فرسان الإسبارتية) إلى (فرسان رودس)، وخلال وجودهم في رودس بنوا الحصون والقرى العسكرية والموانئ الحربية الصغيرة على شواطئ الجزيرة.

ومع مرور الأيام ازداد غناهم المالي في جزيرة رودس، نتيجة عمليات القرصنة التي استمروا بالقيام بها، فكانت القرصنة من جانب تمدد بالمال والثروات، ومن جانب آخر تعطيهم دعماً أوروبياً، بسبب دعايتهم بأن أعمال القرصنة التي يقومون

بها، هي لدفع خطر المسلمين عن أوروبا المسيحية. وقد شكلت عمليات القرصنة حالة رعب وخوف لدى سكان الإمارات العربية التي على شواطئ البحر المتوسط، لما تعرضت له سفنهم التجارية وخطوطهم البحرية.

بعد أن أنهى الملك الفرنسي (فيليب الرابع) حربه التي شنها على تنظيم فرسان المعبد، وأنهى وجودهم، عمل على تحويل ثروتهم إلى فرسان رودس؛ مما أعطاهم مزيداً من القوة العسكرية البحرية في شرق البحر المتوسط، حتى دفعتهم هذه القوة أن يستولوا على ثلاثين سفينة عثمانية محملة بثلاثمئة مدفع وخشب، كان العثمانيون قد أرسلوها لنجدة المماليك في مصر، الذين كانوا يواجهون القوات البحرية البرتغالية التي احتلت بعض الجزر والأراضي العربية، وهددوا مصر من خلال محاولتهم السيطرة على البحر الأحمر كاملاً (7).

وبعد الفتوحات التي قامت بها الدولة العثمانية، وانتشار قواتها في الشمال والغرب، أدرك العثمانيون خطورة وجود هؤلاء القراصنة في البحر المتوسط على خطوطها البحرية ومجالها الحيوي العسكري والاقتصادي، لأن وجودهم في جزيرة رودس سيشكل تهديداً مستمراً لسفنهم وشواطئهم، لما يقوم به القراصنة من عمليات السلب والنهب ضد السفن الإسلامية ومنها السفن العثمانية، كما حدث لسفنهم المرسله إلى مصر.

فقررت الدولة العثمانية إزالة هذا التهديد الخطر نهائياً بالقوة العسكرية، وطرد القراصنة من جزيرة رودس، فأرسلت أسطولها البحري إلى جزيرة رودس، وبعد حروب ضارية، وفرض الحصار عليهم مرتين في عامي 1410 و1480، استطاعت أخيراً اقتلاعهم منها نهائياً، وإجبارهم على الرحيل عن جزيرة رودس، بعد أن احتلوها ما يزيد على قرنين من الزمن.

فأعلن رئيس فرسان رودس آنذاك (فيليب ري ليل آدم) في عام 1522 الاستسلام للقوات العثمانية، والموافقة على الجلاء عن جزيرة رودس، الذي تم في الأول من كانون الثاني عام 1523، وبذلك حررت القوات العثمانية جزيرة رودس من شرورهم، وأنهت خطرهم عن بلدان الشرق العربي، وتحررت أيضاً حركة التجارة العربية والإسلامية والعالمية من عمليات القرصنة من سطو ونهب وقتل.

دولة فرسان مالطا الأولى:

بعد إخراجهم من جزيرة رودس، تنقلوا بسفنهم إلى أماكن عدة في العالم، وكانت أولى محطاتهم التي نزلوا بها هي (سيفيل) في أسبانيا، ولكنهم لم يمكثوا فيها طويلاً، بسبب رفض الأسبان وجودهم لسوء سلوكهم، وغطرستهم، فطردوهم من أسبانيا كلها.

فارتحلوا بسفنهم عبر المحيط الأطلسي إلى بحر العرب إلى الهند، إلى أن وصلوا إلى جزيرة سيلان، حيث حلّوا فيها فترة من الزمن، وسكنوا في مكان يطلق عليه (كاندي)، ولكن سكان الجزيرة رفضوا وجودهم بينهم، لسوء سمعتهم وسلوكهم العدواني، فطردوهم منها، فارتحلوا من جديد، فعادوا من خلال سفنهم مرة أخرى إلى البحر المتوسط عبر المحيط الأطلسي، فنزلوا في إيطاليا، وانتقلوا إلى روما، حيث توسط لهم رجال الدين لدى الملك (شارل كنت)، لمنحهم جزيرة مالطا، يستقروا فيها، وفي 24/آذار / 1530 منحهم جزيرة مالطا، وسمح لهم بإقامة دولة لهم فيها.

وهكذا استقر (الهوسبتاليون) في جزيرة مالطا، وخلال وجودهم فيها، اشتهروا بين سكان البحر المتوسط باسم (فرسان القديس يوحنا الأورشليمي)، فأعادوا بناء قوتهم العسكرية من جديد، وبعد فترة زمنية قصيرة مدوا سيادتهم على بعض الجزر في البحر المتوسط، كجزيرة (دي جوزا De Jozo) وجزيرة (كومينو Comino) القريبة من مدينة طرابلس الليبية، وكانت الجزيرتان تتبعان ملك صقلية.

صدّق البابا (كليمنت السادس) في 25 تشرين الأول عام 1530 على إنشاء دولتهم في مالطا، وبعد هذا التصديق أعلن فرسان الإسبارتية تأسيس دولتهم الثانية في مالطا في 26 تشرين الأول/أكتوبر 1530، وأطلقوا على هذه الدولة اسم (النظام السيادي لفرسان مالطا)، ومن هنا جاءت تسميتهم بفرسان مالطا التي استمرت إلى يومنا هذه.

أعاد رئيسهم (جان دي لافاليت) بناء دولة فرسان مالطا عسكرياً، فحصّن قلاعها، وعزز دفاعاتها لمواجهة القوات العثمانية وأنشأ مدينة فيها كعاصمة للدولة، أطلق عليها اسمه (فاليتا)، وهي اليوم عاصمة دولة مالطا. وجاءت نتائج

معركة (ليبانتوا) عام 1571 بين القوات البحرية الرومية والبحرية العثمانية خدمة لصالح دولة فرسان مالطا، حيث خسر المعركة العثمانيون، وانكفأت قواتهم البحرية عن مناطق مالطا وغيرها، فتوفرت للفرسان فرصة إعادة تشكيل القوة البحرية من جديد، كما وفر كل من بابا روما وحكام فرنسا الحماية والمساندة لتلك الدولة، ونتيجة الاستقرار والأمان اللذين توفرنا لدولة فرسان مالطا، أرسلت سفراء لها إلى بعض الدول الأوروبية، بعد أن حصلت منها على اعتراف بها كدولة مستقلة.

واستغل فرسان مالطا غياب القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط، التي كانت تهدد سفنهم الحربية والتجارية، فأعادوا أعمال القرصنة في البحر، فشكّلوا من جديد تهديداً ليس للتجارة العربية /الإسلامية البحرية، بل لأراضي بعض الدول العربية القريبة من جزيرة مالطا، بعد أن أعلنوا العداء الكامل للعرب، فاعترضوا سفن العرب والمسلمين، ونهبوها، وقتلوا من كان حياً فيها من البشر، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى جمع قراصنة دولة فرسان مالطا ثروات كبيرة، مما دعم من قوتهم العسكرية، كما توسعت أراضي دولتهم بعد أن تنازل لهم الملك الفرنسي (لويس الرابع عشر) في عام 1652 عن مجموعة من الجزر في (الأنтил Antilles) كجزر (سان كيرستوف)، و(سان بارتيليلي)، و(سان كوزا)، وتم التصديق على هذا التنازل رسمياً عام 1653.

إلا أن سيطرتهم على هذه الجزر لم تستمر طويلاً، بسبب عدم القدرة على توفر الإمكانيات العسكرية البحرية من سفن وقوات بحرية وعناصر بشرية لدولة فرسان مالطا قادرة على التنقل السريع بين تلك الجزر، وكذلك لا تملك القدرة العسكرية الكبيرة على حمايتها، مما دفع دولة مالطا بعد سيطرة عليها دامت ما يقارب ثلاث سنوات على تلك الجزر، بالتنازل عنها عام 1655 لشركة فرنسية.

خلال فترة وجودهم في جزيرة مالطا، مارسوا العديد من الأعمال العدوانية ضد الأراضي العربية، إضافة إلى نهب سفنهم التجارية، فشنت سفنهم البحرية هجوماً على المدن والموانئ التي تقع على سواحل ليبيا وتونس، وتكررت هجماتهم العدوانية على تلك المدن، حتى استطاعوا احتلال برقة سنة (1656)، فاستتجد أهل برقة بالمماليك في مصر، الذين أرسلوا قواتهم إليها، فطردوهم منها في العام نفسه.

وهاجموا مدينة طرابلس الغرب بقيادة (ترونافار) تساندهم البحرية الإسبانية ، وبعد قتال شديد مع القوات العربية في طرابلس استطاعوا الاستيلاء عليها ، وفيها ارتكبوا مع الجنود الإسبان أبشع الجرائم الإنسانية ، حيث قتلوا فيها خمسة آلاف عربي ، وأسروا ستة آلاف منهم ، وشردوا ما تبقى من سكان المدينة الذين فروا بأنفسهم وعائلاتهم إلى المدن العربية القريبة ، واستمر الاحتلال الإسباني/المالطي لطرابلس الغرب مدة عشرين عاماً (1656-1676).

نهاية دولة الفرسان في مالطا :

بعد قيام الثورة الفرنسية عام 1789 ، وما أعقبها من حروب بين السلطة الثورية الفرنسية الجديدة وبين الحكومات الرجعية الإقطاعية في أوروبا؛ التي شكلت بداية النهاية لدولة فرسان مالطا ، فبعد أن اجتاحت قوات نابليون بونابرت إيطاليا واحتلتها ، أفقد هذا الاجتياح دولة فرسان مالطا جميع ممتلكاتها وامتيازاتها التي حصلت عليها من فرنسا وإيطاليا ، ثم تلقت دولة فرسان مالطا الضربة النهائية ، بعد أن اجتاحت قوات نابليون بونابرت مالطا ، وهو في طريقه لاحتلال مصر عام 1798 ، وانتصر على قواتهم ، ثم قام بطردهم من مالطا ، وأنهى دولتهم.

وبعد خروجهم من مالطا ، انتقلوا إلى (ترسييتا) في إيطاليا ، واستقروا فيها ولكن بعد أن طرد الأدميرال (نلسون) قائد الأسطول البريطاني القوات الفرنسية من مالطا عام 1802 ، سمح لفرسان مالطا بالعودة إليها بموجب اتفاقية الأمنييس (Amiens) ، إلا أن الكونغرس الذي تشكل من أهالي مالطا في العاصمة (فالييتا) ، رفض عودتهم إليها ، أو فرض سيادتهم من جديد على الجزيرة.

ولللخلاص من هؤلاء المرتزقة القتلة ، ومنع عودتهم إليها؛ قرر (الكونغرس المالطي) إلحاق جزيرة مالطا بالتاج البريطاني ، فقبل الملك البريطاني قرار الكونغرس المالطي ، فكان هذا القرار هو نهاية أمل فرسان مالطا بالعودة إلى الجزيرة ، فانتهى من يومها وجود دولة فرسان مالطا نهائياً وعملياً من جزيرة مالطا ، ولم يبق لهم إلا الاسم الذي يطلقونه عليهم.

بعد الخروج النهائي من الجزيرة انتشر فرسان مالطا في العديد من الأماكن في أوروبا ، فمنهم من اتجه إلى (بطرسبورج) في روسيا ، حيث وضعوا أنفسهم تحت

رعاية سيادة الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت سائدة في روسيا ، وهنا نرى مفارقة دينية مسيحية ، لأول مرة يتم خضوع نظام ديني كاثوليكي يتبع بابا روما تحت كنيسة أرثوذكسية تخضع لقانون الإمبراطورية الروسية ، أما بقية الفرسان فقد تفرقوا إلى جماعات عدة ، توزعت في إيطاليا ما بين روما وكاتانيا وفيرارا .

بدايات دولة فرسان مالطا الجديدة:

تذكر المصادر التاريخية أن آخر الرؤساء الكبار لتنظيم فرسان مالطا كان يدعى (توماكسي) ، وقد تم تنصيبه للرئاسة في عام 1802 ، كما تشير تلك المصادر إلى أنه توفي عام 1805 ، فأصبح من بعده منصب رئيس فرسان مالطا شاغراً إلى القرن العشرين. (8)

تحول عمل تنظيم فرسان مالطا عام 1834 ، وفق الواقع الجديد من العمل العسكري والقرصنة إلى التظاهر بالعمل الخيري ، الذي تشرف عليه (الهيئة العليا) لتنظيم الفرسان في روما ، خاصة العمل الخيري في نطاق المستشفيات ، ومن خلال العمل الخيري انتشروا في مناطق عدة في العالم خاصة في أفريقيا وآسيا ، ومن الملاحظ أن هذا العمل كان يترافق مع العمل التبشيري الديني المسيحي ، وأنهم أبقوا على التقاليد والرموز القديمة الخاصة بهم ، والتي اشتهروا بها أثناء الحروب الصليبية سواء كان في اللباس أو في الإشارات والتقاليد الاجتماعية والدينية .

تم افتتاح أول جمعية رسمية علنية خاصة بفرسان مالطا في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1926 ، بعد مضي ما يقارب القرن على وجودهم فيها ، فكانت خلايا الفرسان قد انتشرت في العاصمة وبعض المدن الأمريكية من خلال انتماء العديد من الأغنياء لتنظيماتهم ، كما لاقت شعاراتهم ودعواتهم وتنظيماتهم دعماً كبيراً من الجناح اليميني المسيحي المتصهين ، بعد أن تلاقوا في الأهداف والغايات ، وتطابق المشروع الديني / السياسي للطرفين .

دولة فرسان مالطا الثانية:

منذ بداية القرن العشرين تكثف النشاط السياسي والاجتماعي والديني لتنظيم فرسان مالطا في أنحاء عديدة من أوروبا وأمريكا ، مما أكسبهم الكثير من الأنصار في تلك الدول ، ودفع التنظيم بعد الحصول على التأييد و الدعم

الأوروبي والأمريكي إلى الإعلان عن قيام دولتهم الحالية ، فحولوا مقرهم الرئيس في روما إلى دولة ذات سيادة ، أطلقوا عليها اسم (المستشارية العسكرية السامية لفرسان مالطا ذي السيادة المستقلة).

وفي عام 1988 انتخبوا بريطانياً من أصل اسكتلندي يدعى البرنس (أندرو برتي) رئيساً لتلك الدولة ، ومنحوه لقب (السيد الأكبر) ، وكان يعمل سابقاً في التدريس الديني ، يحمل مرتبة دينية كبيرة مرتبة (كاردينال) ، ويُعدُّ (أندرو برتي) الرئيس الثامن والسبعين لدولة مالطا ، وهو ثاني بريطاني يتولى رئاسة تلك الدولة .

يعامل رئيس دولة مالطا اليوم في المحافل الدولية معاملة أي رئيس دولة مستقلة في العالم ، كما يملك الحصانة الدبلوماسية في زيارته لدول العالم ، وتتألف القيادة العليا لتلك الدولة من مجلس رئاسي مؤلف من الرئيس (أندرو برتي) وأربعة من كبار المسؤولين يساعدون الرئيس في إدارة شؤون الدولة ، ثم يلي مجلس الرئاسة (هيئة) تضم عشرين من الموظفين الكبار في الدولة ، وهو أقرب ما يكون إلى مجلس نيابي لتلك الدولة ، لكن المثير للدهشة اليوم هو مساحة الجغرافيا التي تقام عليها تلك الدولة ، فكل مساحتها عبارة عن قصر في روما ، يضم بضعة موظفين من الرهبان والقساوسة .

جهاز الدولة الذي تديره مؤلف من ستة أديرة رئيسة ، تتفرع عنها خمسة أديرة فرعية ، يضاف إليهم سبع وأربعون جمعية وطنية منتشرة في خمس قارات. (9) وسكان هذه الدولة لا وجود لهم على أرضها ، بل ترتبط بها مجموعة من المتطوعين من جنسيات مختلفة ، يعملون لصالحها ، ينتمون إلى (125) دولة في العالم ، وقدرت بعض الدراسات والبحوث عدد هؤلاء المتطوعين بما يقارب نصف مليون متطوع في العالم ، منهم مئة ألف في فرنسا وحدها ، ويتوزع مئة ألف آخرون ما بين ألمانيا والولايات المتحدة ، يضاف إليهم ألف وخمسمئة ممن يحملون مرتبة فارس في الولايات المتحدة .

وجذبت إلى مناصرتها عدداً من الرأسماليين في العالم بما طرحته من شعارات إنسانية ، والادعاء بأنها تقوم بالعمل الخيري كالرعاية الصحية للفقراء والمحتاجين في المستشفيات والملاجئ ، وأنها تسخر نشاطاتها لتنظيم العمل الإغاثي والخيري ، مما دفع هؤلاء الأغنياء إلى التبرع بأموال وتقديم الهبات والمساعدات العينية لتلك

الدولة، وإلى جانب العمل الخيري فإنها تقوم بالعمل التبشيري الديني في العالم، أما عملها في الدول العربية والإسلامية فتفرض عليه السرية المطلقة.

ولدى هذه الدولة محاكم خاصة بها، وتقدم لاتباعها جوازات سفر رسمية باسمها، وتقوم بطباعة طوابع بريدية رسمية خاصة بها، وسعت بذريعة العمل الخيري إلى الحصول على الاعتراف بها كدولة مستقلة ذات سيادة، وقد حصلت -وبدعم كبير من الولايات المتحدة والدول الأوروبية - على اعتراف رسمي من العديد من دول العالم، فحسب الإحصاءات الرسمية بلغ عدد الدول التي اعترفت بها (96) دولة، في حين ذكرت قناة الجزيرة أن عدد الدول التي اعترفت بلغت (120) دولة، منها (8) دول عربية، هي مصر والأردن ولبنان والمغرب وموريتانيا والسودان والصومال وأريتريا.

واستفادت كثيراً من الاعترافات الدولية بها، فأرسلت إلى معظم تلك الدول بعثات دبلوماسية لتحقيق أهدافها، وهذا ما صرح به رئيس دولتها (أندرو برتي) بقوله: (إن الدبلوماسية بحد ذاتها ليست من أهدافنا، ولكن إقامة علاقات مع الدول تساعد في تسهيل أعمالنا، والحصول على الأدوية والمواد التموينية، ونقلها إلى المناطق المنكوبة)، واعترف في الوقت نفسه بأن لهم هدفاً آخر، وهو أنهم متمسكون بالمبادئ التي نشأت عليها منظماتهم منذ بداية الحروب الصليبية، فيقول: (نحن لا نخفي شيئاً، فنحن منظمة دينية قديمة، إلينا تقاليدنا وشعائرننا، لذلك فالجانب البروتوكولي والدبلوماسي في غاية الأهمية بالنسبة لنا، ونحن نبذل جهدنا لتقديم العون للمحتاجين، والقسم الأكبر منا رجال دين وقساوسة). (10)

وللتعرف إلى أنموذج من بعثات دولة فرسان مالطا، نأخذ الأنموذج الأردني، فقد اعترفت المملكة الأردنية بما يسمى (المستشارية العسكرية السامية لفرسان مالطا)، وتسلم أمين عام وزارة الخارجية الأردني (التلهوني) أوراق سفيرها (وليد الخازن)، الذي يلقب بالشيخ، وهو من أصل لبناني، ليكون معتمداً لدى وزارة الخارجية الأردنية كسفير فوق العادة ومفوضاً غير مقيم لتلك الدولة. وصرح (الخازن) أن منظمته (ذات سيادة وتُعنى أساساً بالأمر الاستشفائية، وبرعاية المعوزين ومقرها روما وتعترف بها 96 دولة في العالم من بينها 16 دولة إسلامية وسبع دول عربية)، وأوضح الخازن عن ماهية دولته فقال: (إن منظمته ذات سيادة،

ولكنها فقدت سيادتها على يد نابليون بونابرت سنة 1798، قبل أن يطرد الإنكليز نابليون، وإن المنظمة حصلت على سيادتها مرة أخرى بفضل تدخل الفاتيكان، وهو الذي منحها مقرها في روما، وحصلت تلك الدولة بموجب القانون الدولي على صفة عضو مراقب في المنظمات الدولية الممثلة للأمم المتحدة.

فرسان مالطا والمنظمات العنصرية:

وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية مجموعات عديدة من فرسان مالطا بعد طردهم من مالطا، أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، وبعد وصولهم مباشرة شاركوا في الحرب الأهلية، وقد كشفت مشاركتهم في الحرب الإشارات و الرموز التي يحملونها على صدور ثيابهم، وأهمها إشارة صليب (القديس يوحنا)، وهو عبارة عن صليب أبيض معلق بحبل أسود، وقد أطلق عليهم الأمريكيون أثناء الحرب الأهلية فرسان الصليب الأبيض.

وخلال الحرب العنصرية ضد السود تعاونوا مع المنظمة العنصرية (الكو - كلوكس - كلان Ku-Klux- Klan)، التي اشتهرت بمذابحها الإرهابية ضد الأفارقة السود، التي كانت تدعو أتباعها بالدفاع عن المذهب الكاثوليكي، وترفع شعار سيادة الرجل الأبيض في كل الحقوق على الرجل الأسود، ونتيجة للعلاقة الحميمة بين الطرفين، واتحادهما في الدعوة بالدفاع عن المذهب الكاثوليكي، نشأ تنظيم سري أطلق عليه تنظيم (فرسان الكاميليا) Knights of Camilla) في داخل منظمة الكوكلوكس كلان، تبنى أهداف وشعارات فرسان مالطا، وقلد جناحاً من فرسان (الكاميليا) يطلق عليه (الهيراركي)، الهيكل التنظيمي لفرسان مالطا، فأطلق على رئيسه اسم (المارد الأعظم Grand Giant)، على غرار رئيس فرسان مالطا (السيد الأعظم)، وكذلك كان يعاونه أربعة كما حال رئيس فرسان مالطا، فأطلقوا عليهم (فرسان الصقر) (Hawks).

وكثيراً ما تتشابه الطقوس والتقاليد ما بين المنظمين الكو - كلوكس - كلان وكاميليا، ففي اللباس يلبسون الصدرية البيضاء يرسم عليها صليب أحمر، ويرتدون الأقنعة فوق رؤوسهم لا يظهر منها سوى العينين والأنف والضم، ويوقدون المشاعل النارية، ولكن يضيف عليها الكو - كلوكس - كلان؛ بأنهم يحملون جماجم بشرية تتبعث من خلالها النار. (11)

وذكر الباحث الدكتور (إبراهيم خليل إبراهيم) في بحث له بعنوان (حرب العولمة الصليبية): إن منظمة الكوكلوكس كلان العنصرية، كانت تستمد عداً للسود من فرسان مالطا الذين كانوا يعادون العرب والمسلمين، فقد كانت تقوم بأعمال إرهابية ومرعبة ضد الأفارقة السود، كونهم قد أتوا من دول أفريقية ذات أصول إسلامية.(12)

وهؤلاء الأفارقة استرقوا وأرغموا على المجيء إلى أمريكا بالقوة، وقد عانوا الاضطهاد والحرمان، ومورس بحقهم القتل والإرهاب على أيدي هذه المنظمات الإرهابية العنصرية، وقد نشرت الكثير من القصص التي تحدثت عن المعاناة التي عاشتها تلك الفئات السوداء، ولا تزال العديد من الكتب التي نشرت في العالم عامة وفي الولايات المتحدة خاصة قد وثقت تلك الممارسات.

من جرائم فرسان مالطا:

نشرت بعض الدراسات والبحوث عمّا تخفيه دولة فرسان مالطا من أهداف رهيبة، تختلف عمّا تدعيه بأن عملها فقط في العمل الخيري، رغم السرية الشديدة التي تفرضها على أعمالها البعيدة عن العمل الخيري الظاهري، وما كشف منها إلا النزر القليل، ومن تلك الأعمال ما أطلق عليه عملية (هروب الجرذان) التي قامت بها دولة فرسان مالطا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث قامت بتهديب عدد من القادة النازيين إلى خارج ألمانيا وأوروبا، حتى لا تتم محاكمتهم في المحاكم التي شكلها الحلفاء بعد الحرب وعدم مقاضاتهم بجرائم إنسانية ارتكبوها أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد جرت عمليات تهريب سرية مطلقة بالتعاون مع المخابرات النازية، فتم تهريبهم من ألمانيا إلى دول في أمريكا اللاتينية، وقد منحتهم دولة فرسان مالطا جوازات سفر خاصة بها.

كما قامت دولة فرسان مالطا أثناء الحرب الأهلية اليوغسلافية بإخفاء المجرمين الكرواتيين، الذين استباحوا دماء المسلمين في البوسنة والهرسك مع الصرب في الحرب التي جرت في تسعينيات القرن الماضي، وذهب ضحيتها آلاف البوسنيين المسلمين، ومن المعروف أن الكروات ذوي الغالبية الكاثوليكية، في حين أنّ الصرب هم من الأرثوذكس، لهذا كان تعاطف فرسان مالطا مع

الكروات أكثر من تعاطفهم مع الصرب، فتم إخفاء العديد من قادة الكروات في مقرها في روما، بعيداً عن البوليس الدولي الذي كان يلاحقهم بسبب جرائمهم، ويسعى لتقديمهم إلى المحكمة الدولية في (لاهاي)، واستطاع فرسان مالطا تهريب (20) ألف كرواتي إلى الأرجنتين.

كما كشفت دراسات عدة عن علاقات حميمة ربطت قادة فرسان مالطا مع الماسونية، وانتفاء العديد من الفرسان إلى المنظمات الماسونية، كما كشفت أن قادة فرسان مالطا ورهبانهم، قد ارتبطوا بالماسونية منذ عام 1769، وكشفت أن مؤتمراً للماسونية قد انعقد في روما عام 1969 برعاية دولة فرسان مالطا.

فرسان مالطا واليمين المحافظ الأمريكي :

تظهر لنا بعض البحوث والدراسات التي أجراها الباحثان الإيرلندي (سيمون بيلز) والأمريكية (ماريسا سانتيرا)، وهما متخصصان في البحوث العقدية والاجتماعية والسياسية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بأن دولة فرسان مالطا قد أقامت أفضل العلاقات مع الجناح المحافظ اليميني المتصهين في الحزب الجمهوري، كما انتمى إليها بعض رؤساء من الحزب الجمهوري وبعض من قادة الجناح اليميني من بينهم (رونالد ريغان) و(جورج بوش الأب). (13).

نقلت وكالات الأنباء العالمية في أيلول عام 2001 قولاً للرئيس السابق (جورج بوش الابن) قبيل بدء الغزو لأفغانستان أنه يشن حرباً صليبية، وذكر موقع فرسان مالطا الرسمي على الإنترنت أن الجد الأكبر لجورج بوش الابن الرئيس السابق (بريسكوت بوش) كان ينتمي إليها. (14)

ومن المعروف أن الجد الأول لعائلة بوش، وكان اسمه أيضاً جورج بوش الذي كان قسيساً في إحدى أبرشيات أمريكا، أصدر كتاباً في عام 1870 باسم (محمد مؤسس إمبراطورية الإسلام)، اتهم فيه الإسلام بالهرطقة، وعدّ المسلمين جرداناً يجب سحقهم.

وقد رعت دولة فرسان مالطا حركة التبشير في العراق بعد الغزو الأمريكي واحتلاله، مع عدد من المنظمات المسيحية التبشيرية، حتى بلغت ما يزيد عن مئة جمعية مسيحية تبشيرية، لتنصير المسلمين في العراق. (15)

وفي أوائل شهر كانون الأول / ديسمبر 1990 عقد أول مؤتمر لفرسان مالطا في فاليتا عاصمة مالطا بعد قرنين من طردهم منها، وكان عدد الحضور ما يزيد على خمسمئة من أتباع دولة فرسان مالطا، وشوهد بأن غالبيتهم كانوا من القساوسة، وينتمون إلى (22) دولة موزعة في العالم، ويتصف معظمهم بالنزعة الدينية المتشددة والعنصرية والكراهية للعرب والمسلمين.

كان هذا المؤتمر يبحث عن مهام فرسان مالطا في مشروع القرن الأمريكي، ومن المظاهر اللافتة أن المؤتمرين كلهم ارتدوا ملابس كهنوتية سوداء، يزينها صليب أبيض مزدوج الأطراف، وقد ترأس المؤتمر السيد الأعظم (أندرو بيرتي)، وقرر المؤتمر إعادة النشاط التصيري في البلدان الإسلامية، كما قاموا بزيارة القلاع والقصور والتحصينات التي أقامتها سابقاً دولتهم في مالطا، وطلبوا من قيادتهم الاتفاق مع دولة مالطا على استئجار إحدى القلاع أو القواعد القديمة المطلة على ميناء فاليتا العاصمة، واتخاذها مقراً لدولة فرسان مالطا إحياء للدولة القديمة. كثفت بعد المؤتمر دولة الفرسان وجودها في العديد من بلدان الوطن العربي، ففي لبنان أصبح لها وجود واضح، وأتباع كثير، وهي اليوم تشرف على العديد من المشافي والعيادات في لبنان، وأبدت اهتماماً خاصاً بأوضاع اللاجئين في العراق وسورية وفلسطين المحتلة، حيث لها مستشفى خاص بالولادات في بيت لحم، وفي السودان افتتحت سفارة، وكثفت من وجودها في السودان بذريعة تقديم الإغاثة ومساعدات للاجئين في جنوب السودان ودار فور.

فرسان مالطا وشركات المرتزقة:

عرضنا سابقاً ما قام به الاحتلال الأمريكي في إدخال مئات من شركات المرتزقة إلى العراق، وقد كشفت الصحف العالمية والدوائر البحثية عن ارتباط كبير ما بين دولة فرسان مالطا وشركات المرتزقة في العراق.

ونذكر ما كشف عن تلك العلاقة الصحفي الأمريكي (جيرمي سيكاهل) في كتابه عن شركة (بلاك ووتر) الأمنية، فأكد وجود علاقات وثيقة ما بين الشركات الأمنية وما يسمى بدولة فرسان مالطا؛ وأهم ما في تلك العلاقة أن دولة فرسان مالطا تقوم بتزويد الشركات الأمنية بالمرتزقة الذين تحركهم الحماية

الأصولية المسيحية؛ ليقاتلوا في المناطق الإسلامية الساخنة، التي يُحجم عن دخولها بقية المرتزقة.

وتذكر بعض المصادر الصحفية أن هؤلاء المرتزقة يتسمون بالتشدد والحقد على العرب والإسلام، وقد تم استخدامهم بشكل خاص في تدمير مدينة الفلوجة العراقية عام 2004، كما كانوا وراء تدمير العشرات من المساجد، وحرق المصاحف، وارتكاب أبشع الجرائم الإنسانية من قتل وحرق وإبادة جماعية.

وكشف (سيكاهل) أن عدداً من قادة شركة بلاك ووتر، ينتمون إلى تنظيم فرسان مالطا، وهم من غلاة المتطرفين دينياً بالعداء للعرب والمسلمين، أمثال مؤسس الشركة (إيريك برينس)، والجنرال المتقاعد (جوزيف شميتز) مستشار لمجموعة شركة بلاك ووتر، الذي كان يعمل قبل ذلك مفتشاً عاماً لوزارة الدفاع الأمريكية، والذي اعترف في كتابه الذي تحدث فيه عن سيرته الشخصية؛ بأنه كان عضواً في جماعة (فرسان مالطا). (16) بل إن عدداً من مديري (بلاك ووتر) لا يخفون بأنهم أعضاء في دولة فرسان مالطا. (17)

وكشف الصحفي المشهور (محمد حسنين هيكل) عن العلاقة التي تربط ما بين الشركات الأمنية وتنظيم فرسان مالطا، فذكر أن وجود شركات المرتزقة في العراق ليس مجرد تعاقد أمني مع البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية)، تقوم بمقتضاه هذه القوات بمهام قتالية نيابة عن الجيش الأمريكي، بل يسبقه تعاقد إيديولوجي مشترك بين الجانبين يجمع بينها، تقوم به "دولة فرسان مالطا" التي تهيمن على صناعة القرار في الولايات المتحدة والعالم.

فقال هيكل: "لأول مرة أسمع خطاباً سياسياً في الغرب واسعاً يتحدث عن الحروب الصليبية، هناك أجواء حرب صليبية"، وأشار إلى ما كشفه الصحفي الأمريكي جريمي سيكاهل في العلاقة الدينية المتطرفة بين هذه الدولة الصليبية وشركة بلاك ووتر التي عاثت فساداً في العراق، (18) وأقدمت على أكبر مجازر التاريخ الحديث في التدمير المنهجي لمدينة الفلوجة والعديد من المدن والقرى العراقية، وانتهكت محرمات العرب العراقيين، وأفرغت بهم حقدتها، الذي لم يظهر له مثل إلا حين أغرق الصليبيون المسجد الأقصى بالدماء من رجال ونساء وأطفال وشباب لاذوا به لاجئين.

وذكر الصحفي (جيرمي سيكاهل) في كتابه المذكور معلومة هامة، تقول: إن دولة فرسان مالطا قامت بتزويد المرتزقة الذين ترسلهم إلى شركة بلاك ووتر أو غيرها من شركات المرتزقة العاملة في العراق بجوازات سفر خاصة بها، من أجل حمايتهم، وتسهيل دخولهم إلى العراق. (19).

إن هذا الرابط ما بين مرتزقة الشركات، وخاصة شركة بلاك ووتر من ذوي النزعة الأصولية ودولة فرسان مالطا، يشكل خطراً كبيراً على بلاد العرب والمسلمين، لأنهم أداة التنفيذ لمخططات المشروع الأمريكي / الصهيوني، وتهديداً لاستقلالها وثرواتها وشعوبها.

الخاتمة:

وختاماً نرجو أن نكون قد قدمنا للقارئ الكريم بعضاً من حقائق وجود دولة من بقايا مخلفات الحروب الصليبية، والتي تتخفى برداء الخدمات والمساعدات الإنسانية في حين تشارك القوى الإمبريالية في العدوان والحروب على البلدان العربية من خلال توفير الغطاء القانوني لمرتزقة العدوان ليعيثوا في البلدان العربية فساداً وقتلاً وإرهاباً واعتداء على سيادتها ووحدتها واستقلالها.

المراجع:

- 1 - وكالة القدس برس -العرب أونلاين - القاهرة - 30 / 4 / 2008.
- 2 - د أمينة بيطار - تاريخ العصر الأيوبي - دار الطباعة الحديثة - دمشق - 1981 - ص 7 و6
- 3- د. بشارة خضر - أوروبا وفلسطين - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - 2003 - ص 36.
- 4 - Ceclé Morrison , Les Croisades, que sais-?; no. 157(Paris -4 :presses universitaires de france, 1969),p,18
- 5 - د. بشارة خضر - أوروبا وفلسطين - مصدر سابق - ص 37 .
- 6 - Morriss,Les Croisades,p,32
- 7 - Halil Inatcik : " The Rise of the ottoman Empire ' The Cambridge History of Islam , VOI.I,P.317
- 8- محمد جمال عرفة - سفارة بلا دولة - الإسلام اليوم - محاور إعلامية - 2002/1/1
- 9 - د. ابراهيم خليل إبراهيم - مقالة حرب العولمة الصليبية - فرسان مالطا - منبر دنيا الوطن. <http://pulpit.alwatanvoice.com>.
- 10 - المصدر السابق.
- 11 - المصدر السابق.
- 12 - المصدر السابق
- 13- فرسان مالطا أكبر مليشيا أمريكية - www.almokhtsar.com - 2007/5/13
- 14 - المصدر السابق.
- 15 - قناة الجزيرة - الأربعاء 20 أيلول 2006.
- 16 - لمزيد من الاطلاع انظر إلى مواقع منظمة فرسان مالطا - <http://www.kwrelecom.com/heraldry/stjohn/sovord.html>
- 17 - جرمي سيكاهل - ملخص بلاك ووتر - ترجمة أمل الشرقي - المنتدى العراقي - 2007/7/22 -
- 18 - فرسان القديس يوحنا - موقع ويكيبيديا - الموسوعة الحرة - 22 نيسان 2008.
- 19 - بالتصرف عن CCN - dvd4arab.com

ترجمات

*** ماذا يحدث بالفعل في سورية:
من الذي بدأ الحرب؟
ومن هو الذي يهكك الوثوق به في قول الحقيقة؟**

الكاتب روبرت روث♦♦

ترجمة: د. حسين عزيز صالح***

خط الولايات المتحدة/ الناتو :

إذا حاولت متابعة الأحداث في وسائل الإعلام الرئيسة، ربما تلاحظ أنها تشير بشكل روتيني إلى الرئيس السوري بشار الأسد الذي كان من المفترض أن يرد على الاحتجاجات السلمية بالعنف، فيكون ذلك ذريعةً للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والسعودية وقطر لمواصلة تأكيد أن "الأسد يجب أن يرحل".

♦ نشرت هذه الدراسة باللغة الإنكليزية في كانون الثاني 2017 للمحامي روبرت روث (Robert Roth) على الموقع الإلكتروني للبحث العالمي (Global Research) بالعنوان:

<https://www.globalresearch.ca/whats-really-happening-in-syria-who-started-the-war-who-can-you-trust-to-tell-the-truth/5570297>

♦♦ هو محام متقاعد، عمل مساعداً للمدعي العام في كل من ولاية نيويورك (1981 - 1991) وولاية أوريجون (1993 - 2007م).

♦♦♦ أستاذ جامعي (سورية).

المدير العام السابق للهيئة العليا للبحث العلمي (سورية)، باحث في جامعتي بروكسل وغيننت (بلجيكا) 2001 - 2005، محاضر في جامعة إنست لندن (بريطانيا) 1999 - 2001.

أنا لا أتفق مع كل ذلك، كما سأوضح في هذه الدراسة. لقد أمضيت 25 عاماً في مقاضاة أكاذيب التجارة أمام المحامين العاميين في ولايتي نيويورك وأوريجون، وقمت بإعداد هذا الموجز التمهيدي لمساعدتكم في دحض الأكاذيب والتعرف على حقيقة ما يجري في سورية. ما يزال من الممكن تماماً أن تنشأ حربٌ نوويةٌ جراء مواجهات غير مدروسة لأمريكا/لناتو مع روسيا في سورية. وأشار الرئيس المنتخب ترامب إلى أنه يحيد وجود علاقة تعاونية مع روسيا، لكنه سيواجه ضغطاً مستمراً من الدولة العارقة (أو ما يسمى بحكومة الظل التي لها تأثير مباشر على صنع القرار)، ومن المحافظين الجدد، وبشكل واضح من وسائل الإعلام، لمواصلة الحرب الباردة الجديدة التي بدأت في أوكرانيا، من أجل شيطنة الرئيس بوتين وروسيا ذاتها، تلك الحرب المستمرة منذ زمن، وليس ثمة ما يشير إلى إيقافها. وهكذا - بالإضافة إلى معاناة الشعب السوري جراء الإرهاب الذي يتعرض له - فإن الصراع في سورية يُشكل أيضاً تهديداً خطيراً لنا جميعاً.

القانون الدولي والأخلاق وسيادة الشعب:

بما أن سورية لم تُهدد أمريكا بأي شكل من الأشكال، ناهيك عن أنها لم تهاجمنا، فإن حكومتنا ليس لها الحق في محاولة الإطاحة بالحكومة السورية. يُحظر ميثاق الأمم المتحدة أي عدوان استباقي على دول أخرى ذات سيادة ما لم يأذن مجلس الأمن الدولي بذلك. لقد وقعت الولايات المتحدة على ميثاق الأمم المتحدة، وبهذا فهو بمثابة معاهدة "القانون الأعلى للأرض" بموجب المادة السادسة من الدستور الأمريكي. لذلك فإن محاولة أمريكا للإطاحة بالحكومة السورية هو انتهاك صارخ لكل من القانون الأمريكي والقانون الدولي على حد سواء.

فالمحاولات الرامية التي تقوم بها أمريكا للإطاحة بالحكومة السورية غير أخلاقية، نظراً لتأثيرها المزعزع للاستقرار، والذي يُسبب المزيد من المعاناة والموت، ويساعد في صعود داعش.

إن محاولة الإطاحة بالأسد تعدّ تدخلاً صارخاً في سيادة الشعب السوري الذي له الحق في اختيار حكومته الخاصة. وقد اختار السوريون حكومتهم بأغلبية

ساحقة. الرئيس السوري بشار الأسد ليس فقط الزعيم المنتخب ديمقراطياً لبلاده، بل كان يتمتع بشعبية كبيرة داخل سورية في كل الأوقات، قبل بدء العنف وطوال النزاع، وسيكون من المستحيل تحقيق هذه الشعبية لو كانت أعمال العنف التي بدأت في آذار 2011 من صنع الحكومة أو السلطة السورية.

إني أحاول أن أوضح هنا أن العنف في سورية كان وراءه عناصر مجهولة دفعت المتظاهرين المسلمين للتظاهر، وارتكبت الكثير من عمليات القتل ثم تمكنت - عبر التلاعب بوسائل الإعلام الكبيرة - من إلقاء اللوم على الحكومة السورية.

الحكومة السورية:

على الرغم من أن المحاولات الكبيرة للإطاحة بالحكومة السورية غير قانونية، فإنه يبدو أن الكثير من الأميركيين يشعرون أن من حقهم التدخل في شؤون الحكومات الأجنبية التي يُقال: إنها تضطهد شعبها. أنا هنا لا أدعي أن الحكومة السورية مثالية، ولكن، مرة أخرى، أؤكد أن الأمر يعود للشعب السوري لاختيار حكومته.

لواشنطن تاريخ في تقويض وإسقاط الحكومات التي لا تتفق مع الشركات والمستثمرين الأميركيين والغربيين. ولما كان الأصوليون الإسلاميون - كالأخوان المسلمين والقاعدة وداعش وغير ذلك من التنظيمات المتشددة - يشكلون تهديدات مستمرة للاستقرار في الشرق الأوسط، لذا فقد توصلت إلى الاعتقاد بأن أي حكومة في الشرق الأوسط قد يتعين عليها أن تكون سلطوية إلى حد ما لكي تبقى في السلطة. وفي سورية هناك تسامح مع وجهات النظر المختلفة للديانات والأقليات، بحيث يبدو أن قدرًا معينًا مما يمكن تسميته "قمع" بعض أشكال المعارضة هو مقايضة عادلة، (أي حل وسط)، وهو ما يفضله معظم السوريين بوضوح.

في السنوات التي سبقت بدء الصراع الحالي في سورية، والذي بدأ مطلع عام 2011، حاولت الحكومة السورية إجراء إصلاحات دستورية، وبالتالي أصبحت أقل قمعية، ولكن هذا الجهد قوضته محاولة الإطاحة بها بالقوة وبالعنف.

الطائفية مقابل الحكومة العلمانية (ما يحدث في سورية .. ليس حرباً أهلية):

إن الصراع الأساسي بين من يريدون حكومة طائفية (دينية) قمعية بطرق مختلفة، وحكومة علمانية (غير دينية) - كما هو في سورية الآن - لم يكن أبداً حرباً بين الطوائف الإسلامية المتنافسة، كما أنه ليس حرباً أهلية، وإنما هي حربٌ يشنها بعض المتمردين السوريين والعديد من الأجانب الذين يريدون الإطاحة بالحكومة الشرعية ومعها المجتمع السوري العلماني الشمولي القائم على التسامح، وإنشاء حكومة ومجتمع إسلاميين متطرفين بدعم من السعودية وقطر وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية التي هي الأخرى تدعم هؤلاء المتطرفين في إطار محاولاتها للسيطرة على الشرق الأوسط و على موارد الطاقة فيه.

إن معظم السوريين ظلوا متمسكين بحكومتهم وبجيشهم، وملتصين حمايتهم، وهم يريدون الحفاظ على مجتمعهم العلماني المتسامح. ولكن بما أن هذا تم تمزيقه بأعمال الفوضى والعنف المسلح، فإنهم يخشون أيضاً أن يتم الاستيلاء على بلادهم من تنظيمات متشددة كتتنظيم نور الدين الزنكي الذي قطع رأس صبي لا يتجاوز عمره اثني عشر عاماً، وفي حال حصل ذلك فإنهم سيواجهون مصائر مماثلة⁽¹⁾.

بعضهم يريد إصلاح الحكومة، لكنه لا يدعم الإرهابيين لتحقيق ذلك الإصلاح. في الحقيقة يسعدهم رؤية تلك الطائرات الروسية في السماء بدعوة من حكومتهم، وهم يدعمون الجيش العربي السوري وبشار الأسد. ربما يظن الكثيرون أن الأسد والجيش كانا لطيفين جداً في التعامل مع المعارضة الإرهابية التي غزت بلادهم.

كما يمكن أن نلاحظ - بسبب تحريض وسائل الإعلام وعدم كفاية التقارير الواردة أو بسبب طمس الحقيقة عن "أزمة المهاجرين" التي تواجهها دول أوروبية - ما يكون انطباعاً أن معظم السوريين يحاولون الخروج من بلدهم

(1) <https://consortiumnews.com/2016/07/21/us-backed-syrian-moderates-behead-12-year-old/>.

والذهاب إلى أوروبا، لكن في الواقع - كما ذكر تيم أندرسون (في الحرب القذرة على سورية، الفصل 14) - اختار معظم السوريين البقاء في سورية تحت حماية حكومتهم وجيشهم. يقول أندرسون:

... تُعَيَّبُ "حرب الخرائط" (war of maps) على الإنترنت ذلك [في] عندما ليتحدثا المعلقون عن مدى سيطرة الجماعات الإسلامية على "إقليم" واحد أو غيره، فإنهم لا يلاحظون عموماً أن الحكومة [حافظت] على سيطرتها على الأغلبية العظمى من المناطق المأهولة بالسكان، وأن معظم السكان النازحين لجؤوا إلى تلك المدن التي تسيطر عليها الحكومة.

بحلول عام 2015 كان انقطاع التيار الكهربائي والنقص في الموارد أسوأ، لكن المدارس والمراكز الصحية والمرافق الرياضية كانت تعمل. بينما الحياة كانت بالكاد عادية، ومع ذلك استمرت الحياة اليومية، وبقي الناس على قيد الحياة، وكانوا يقاومون. لم تكن هذه الحقيقة مرئية في وسائل الإعلام الغربية التي نشرت باستمرار الأكاذيب حول طبيعة النزاع. على وجه الخصوص، حاولوا إخفاء دعم الناتو للجماعات المتطرفة، وبينما كانوا يصرون على تقدم المجموعات المتشددة كانوا يتجاهلون هجمات الجيش السوري المضادة، وانتصاراته على تلك المجموعات.

بالتحقق من الحقيقة الأولى يتبين أنه لم يكن هناك "متمردون معتدلون"، فحركة الإصلاح السياسي الحقيقية تم طمسها بتمرد إسلامي تدعمه السعودية، خلال الفترة من آذار إلى نيسان/أبريل 2011.

بعد سنوات أطلق السوريون العاديون على كل هذه الجماعات اسم "داعش" أو "الإرهابيين" أو "المرتزقة"، غير مكترثين بالأسماء المختلفة لهذه الجماعات... وتؤكد التصريحات عن حدوث إبادة جماعية قام بها قادة "المتطرفين المعتدلين" على الرغم من الاختلاف المحدود بين ما يسمى بـ "المعتدلين" وما يسمى بالمتطرفين في عمليات الإبادة الجماعية.

إن حماسة الإبادة الجماعية لهؤلاء "المعتدلين" لا تختلف عن تلك التي في النصر أو داعش، وإن طبيعة النزاع المسلح كانت دائماً بين دولة تُنعت بالاستبداد، لكنها

تعددية شمولية اجتماعياً، وبين الإسلاميين الطائفيين على الطريقة السعودية، والذين يعملون كجيوش بالوكالة للقوى الكبرى.

وبالتحقق من الحقيقة الثانية: نجد أن جميع الفئات التي ألقى باللوم فيها على الجيش السوري قد ارتكبتها إسلاميون يتلقون الدعم من الغرب، كجزء من استراتيجيتهم لجذب المزيد من الدعم العسكري الأجنبي، وهؤلاء كررت وسائل الإعلام الغربية مزاعمهم، وغذتها بمصادر إسلامية حزبية وضخمتها بـ "هيئات مراقبة" (watchdogs) مركبة، بما في ذلك منظمة العفو الدولية ومراقبة حقوق الإنسان. قام الجيش السوري بالفعل بإعدام من ثبت تورطه بالقتل والإرهاب، وبمواصلة اعتقال من يشتبه في تعاملهم وتعاونهم مع الإرهابيين، ولكن هذا الجيش يتمتع بدعم شعبي قوي، فالشعب السوري يعرف عدوّه ويدعم جيشه. أما العصابات المسلحة فتتباهى بفظائعها.

من الذي بدأ الحرب؟

إن تحديد كيفية حدوث الاضطرابات الأولية في آذار 2011 وتطورها إلى شكل الصراع الحالي أمر معقد، بسبب حقيقة أنه في البداية لم يكن واضحاً من هو الذي كان متورطاً في العنف. حاولت الحكومة التقليل من شأن العنف للحفاظ على النظام ومعنويات الجيش العربي السوري، لأن العديد من الضحايا كان من الجنود السوريين.

بمن يمكن أن تثق في قول الحقيقة؟

كل هذا يثير مسألة من يجب تصديقه. إن أولئك الذين يحاولون الإطاحة بالحكومة السورية قد شنوا منذ البداية حرباً دعائية متطورة وفعالة بشكل لا يُصدق، لذلك هناك "أدلة" متضاربة على العديد من الأحداث الحرجة. ولكنني أعتقد أن قدراً كبيراً من "الأدلة" التي بثتها وسائل الإعلام الرئيسية كانت بالفعل من صنعة الإرهابيين.

لقد حددت مصادر تبدو لي ذات مصداقية - على سبيل المثال، روبرت ف. كينيدي الابن (Robert F. Kennedy, Jr.)؛ والأستاذ الأسترالي تيم أندرسون (Tim Anderson)؛ والمعلقة والمحلة شارمين نارواني (Sharmine Narwani)،

والأب فرانس فان دير لوغت (Father Frans van der Lugt) الكاهن اليسوعي الهولندي الذي قُتل في حمص في بداية 2014 – أن معظم مواطني سورية لا يدعمون المعارضة، حتى دولة مثل قطر التي أنفقت مليارات الدولارات لتمويل الإرهابيين الأجانب في سورية! ذكرت ذلك عقب استطلاع للرأي. لذلك لا يمكنك أيضاً القول: إن هذه انتفاضة شعبية. غالبية الناس ليسوا جزءاً من التمرد، وبالتأكيد ليسوا جزءاً من التمرد المسلح. ما يحدث هو، قبل كل شيء، صراع بين الجيش والجماعات الإسلامية المتشددة الوهابية المسلحة التي تهدف إلى قلب النظام العلماني والاستيلاء على السلطة.

منذ البداية لم تكن حركات الاحتجاج سلمية بحتة، ورأيت متظاهرين مسلحين يسيرون في الاحتجاجات، ويطلقون النار على الشرطة أولاً. في كثير من الأحيان كان عنف قوات الأمن هو رد فعل على العنف الوحشي للمتمردين المسلحين⁽¹⁾.

المحرّضون: أنا أيضاً أميل إلى تصديق بعض الأدلة التي أعتمد عليها هنا بسبب التشابه مع المواقف التي أعرفها في أي مكان آخر. على سبيل المثال، درست الانقلاب في أوكرانيا بشيء من التفصيل، واقتنعت بأن القناصة في ساحة الميدان (Maidan) كانوا محرّضين، وأطلقوا النار على كل من الشرطة والمتظاهرين من أجل إثارة المزيد من العنف. لذا عندما أرى ادعاءات عن سلوك مشابه لما يحصل في سورية، فإن ذلك يستند منطقياً – ولو بشكل جزئي – إلى أتباع النمط نفسه الذي استخدمته الولايات المتحدة لزعزعة الاستقرار والإطاحة بالحكومات في البلدان الأخرى⁽²⁾. إن المقالات التي تتناول التقارير وتناقش الوضع الحالي معروضة في نهاية هذه الدراسة.

(1) Father Frans on the Syrian Rebellion: The “Protestors” Shot First. <http://www.trans-int.com/wordpress/index.php/2014/04/14/father-frans-on-the-syrian-rebellion-the-protestors-shot-first/>. Posted by John Rosenthal.

(2) James Carden, How Libyan ‘Regime Change’ Lies Echo in Syria, September 25, 2016, posted at

الخلفية :

بدأ تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية لسورية في عام 1949 كما ورد في تفاصيل مقالة لـ "روبرت كينيدي" الابن الذي قدم الكثير من الحقائق الهامة والتعليقات التي تم تحديد العديد من مصادرها ، والتي أخطأها هنا من أجل الإيجاز. أقتبس فقط بضع فقرات للخلفية التاريخية والسياق.

السيد كينيدي ليس من محبي بشار الأسد ، ويشير إليه بعبارات غير إيجابية ، لكنه يشرح بوضوح دوافع الحكومات التي ترغب في الإطاحة بحكومة الأسد ، ولاسيما بعد رفضه السماح بإنشاء خط أنابيب عبر سورية لنقل الغاز الطبيعي إلى أوروبا ، وهو مشروع ترغب فيه قطر وحلفاؤها في الخليج والغرب.

من روبرت كينيدي الابن ، "لماذا لا يريدينا العرب في سورية" ، 1 آذار 2016:⁽¹⁾

الجواب باختصار: لأن أبي قُتل على يد عربي ، لقد بذلت جهداً لفهم تأثير السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ، وخاصة العوامل التي تحفز أحياناً ردود الفعل المتعطشة للدماء من العالم الإسلامي ضد بلدنا.

(....) خلال الخمسينيات من القرن الماضي ، رفض الرئيس أيزنهاور وإخوانه آلن دالاس (Allen Dulles) مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وجون فوستر دالاس (John Foster Dulles) وزير الخارجية ، مقترحات المعاهدة السوفييتية لترك الشرق الأوسط منطقة محايدة في الحرب الباردة ، والسماح للعرب بحكم الجزيرة العربية ، وبدلاً من ذلك شنوا حرباً سرية ضد القومية العربية (....) خاصةً عندما هُدد الحكم الذاتي العربي بتنازلات النفط (...)

بدأت (السي أي إيه) تدخلها النشاط في سورية عام 1949 (...) الوطنيون السوريون أعلنوا الحرب على النازيين ، وطردوا المستعمر الفرنسي ، وصاغوا

<https://consortiumnews.com/2016/09/25/how-libyan-regime-change-lies-echo-in-syria>

⁽¹⁾ <http://www.politico.eu/author/robert-f-kennedy-jr/>. This article has been updated to identify Robert Kennedy as U.S. Attorney General. Robert F. Kennedy, Jr. is the president of Waterkeeper Alliance. His newest book is Thimerosal: Let The Science Speak.

ديمقراطية علمانية هشة مبنية على النموذج الأمريكي. لكن في آذار 1949، تردد الرئيس السوري المنتخب ديمقراطياً، شكري القوتلي، في الموافقة على خط الأنابيب عبر البلدان العربية، والذي هو مشروع أمريكي (...) بالانتقام (...) أعدت وكالة المخابرات المركزية انقلاباً يستبدل القوتلي بديكتاتور وكالة الاستخبارات المركزية، حسني الزعيم (...).

(...) مارس الشعب السوري مرة أخرى الديمقراطية في عام 1955، وأعاد انتخاب القوتلي وحزبه الوطني. كان القوتلي لا يزال محايداً في الحرب الباردة، لكن بسبب الانغماس الأمريكي في الإطاحة به، اتجه نحو المعسكر السوفييتي. تسبب هذا الموقف في أن يرسل (دالرس) مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية اثنين من مصممي الانقلابات، كيم روزفلت (Kim Roosevelt)، وروكي ستون (Rocky Stone)، إلى دمشق (...).

لكن (...) أخفقت أموال المخابرات المركزية الأمريكية في إفساد الضباط العسكريين السوريين الذين قاموا بالإبلاغ عن محاولات رشوة وكالة المخابرات المركزية إلى النظام البعثي. رداً على ذلك غزا الجيش السوري السفارة الأمريكية وقام بسجن ستون (Stone)، وبعد استجوابه بقساوة قدم ستون اعترافاً متلفزاً بأدواره في الانقلاب الإيراني، ومحاولة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الفاشلة الإطاحة بالحكومة الشرعية في سورية. رفض أيزنهاور في البيت الأبيض الاعترافات الفارغة لستون ووصفها بأنها "اختلاقات" و"افتراءات"، وهو إنكار استهلكته الصحافة الأمريكية بالكامل بقيادة صحيفة نيويورك تايمز، وصدقه الشعب الأمريكي (...).

بالطبع، نظر الروس - الذين يبيعون 70 في المئة من صادراتهم من الغاز إلى أوروبا - إلى خط الأنابيب القطري التركي كتهديد وجودي (...). في عام 2009 أعلن الأسد أنه سيرفض توقيع الاتفاقية للسماح لهذا الخط بالمرور عبر سورية "لحماية مصالح الحليف الروسي."

(...) بعد ذلك بفترة وجيزة بدأت المخابرات المركزية الأمريكية بتمويل جماعات المعارضة في سورية. من المهم أن نلاحظ أن هذا كان قبل وقت طويل من انتفاضة "الربيع العربي" ضد الأسد.

(...) بحلول ربيع عام 2011، كانت هناك مظاهرات سلمية صغيرة في دمشق ضد الأسد (...) على أية حال، تشير قنوات ويكيليكس إلى أن وكالة المخابرات المركزية كانت بالفعل على الأرض في سورية (...).

إن فكرة إثارة حرب أهلية سنية - شيعية لإضعاف النظامين السوري والإيراني، [وبالتالي] الحفاظ على السيطرة على إمدادات البتروكيماويات في المنطقة لم تكن فكرة جديدة (...) أوصى تقرير راند (Rand report) لعام 2008 الممول من البنتاغون (...) باستخدام "العمل السري، وعمليات المعلومات، والحرب غير التقليدية" لفرض استراتيجية "فرق تسد...".

(...) قبل عامين من دخول قوات الأعناق التابعة لداعش على المسرح العالمي، حذرت دراسة أجرتها وكالة الاستخبارات الدفاعية الأمريكية، مؤلفة من سبع صفحات في 12 آب 2012، وحصلت عليها مجموعة يمينال ووتش (Judicial Watch اليمنية، حذرت (...) من أن "السلفية والإخوان المسلمين والقاعدة (تنظيم القاعدة في العراق)، وحالياً داعش، هي القوى الرئيسية التي تقود التمرد المسلح في سورية."

باستخدام التمويل من الولايات المتحدة ودول الخليج قامت هذه الجماعات بتحويل الاحتجاجات السلمية ضد الأسد نحو "اتجاه طائفي واضح (الشيعية مقابل السنة)" (...).

ليس من قبيل المصادفة أن المناطق السورية التي تحتلها داعش تشمل بالضبط المسار المقترح لخط الأنابيب القطري.

(...) مع بداية عام 2011 قام حلفاؤنا بتمويل مقاتلي القاعدة في العراق لغزو سورية، وفي نيسان 2013، بعد أن دخلت إلى سورية، غيرت القاعدة في العراق اسمها إلى داعش. وفقاً للصحفي ديكستير فيلكينس (Dexter Filkins) من مجلة النيويوركي (New Yorker): "يدير داعش مجلس من الجنرالات العراقيين

السابقين (...) وكثيرون من أعضاء حزب البعث العلماني بزعامة صدام حسين الذين اعتنقوا الإسلام المتطرف في السجون الأمريكية.....
ولكن بعد ذلك، وبالضبط في عام 2014، قام وكلاؤنا في العراق بترويع الشعب الأمريكي من خلال قطع الرؤوس وتهجير مليون لاجئ نحو أوروبا... .

تيم أندرسون، الحرب القذرة على سورية: (واشنطن وتغيير النظام والمقاومة):

كتب أستاذ في أستراليا كتاباً يروي القصة بأكملها وتعمق. تيم أندرسون، الحرب القذرة على سورية: واشنطن، تغيير النظام والمقاومة.. كتاب البروفيسور أندرسون قصير وواضح وموجز بملخصات مفيدة تشبه الملصقات، ويعرض تحليلاً أكثر تفصيلاً مما يمكنني تقديمه هنا.

لمحة عامة: كان جهد الولايات المتحدة لتقويض نظام الأسد، والإطاحة بحكومته والاستعاضة عنها بنظام أكثر ودية للمستثمرين الأمريكيين والغربيين، هو آخر دفعة من البرنامج الأمريكي الشامل الذي تم السعي إليه باستمرار منذ نهاية الحرب العالمية الثانية للسيطرة على العالم لمصلحة النخب الأمريكية، بما في ذلك المجمع الصناعي العسكري، والشركات متعددة الجنسيات ومستثمروها، والقيادة السياسية المتعطشة للهيمنة⁽¹⁾.

مقتطفات من الفصل الخامس من الحرب القذرة على سورية:

بشار الأسد والإصلاح السياسي:

لقد جلب الرئيس حافظ الأسد (والد الرئيس الحالي بشار الأسد) إلى سورية ثلاثة عقود من الاستقرار الداخلي. بعد الاضطرابات في الستينيات من القرن الماضي (...) كانت هناك تحسينات كبيرة في التعليم والصحة، بما في ذلك التطعيم الصحي الشامل وتحسين مستوى محو الأمية للمرأة. بين عامي 1970 و 2010

⁽¹⁾ Noam Chomsky, "The Right Turn in U.S. International and Security Policy," University of Colorado at Boulder (October 22, 1986), available from Alternative Radio, www.alternativeradio.org (1-800-444-1977); Noam Chomsky, Hegemony or Survival, (2003).

انخفض معدل وفيات الرضع من 132 إلى 14 (لكل 1000)، في حين انخفض معدل وفيات الأمهات من 482 إلى 45 (لكل 100000).. (Sen, Al- Faisal and Al-Saleh 2012: 196). ارتفعت شبكات توزيع الكهرباء في المناطق الريفية من 2 ٪ في عام 1963 إلى 95 ٪ في عام 1992 (Hinnebusch 2012: 2). أدت تقاليد التعددية الاجتماعية المقترنة بالتقدم في التعليم إلى دفع التنمية البشرية في البلاد إلى حد كبير قبل العديد من الدول الأكثر ثراءً في المنطقة.

ومع ذلك، (...) فإن النظام الذي بناه **حافظ الأسد** (...) ظل نظام سلطة الحزب الواحد (...) لاحظت المخابرات الأمريكية أن سحق تمرد الإخوان المسلمين في أوائل ثمانينيات القرن الماضي كان موضع ترحيب معظم السوريين (DIA 1982, vii) بعد ذلك (...) "الشرطة السرية السورية المخيفة" كانت متيقظة بشكل مطلق على الجواسيس الصهاينة ومؤامرات الإخوان المسلمين الجديدة.

(...) في بداية الألفية، كان يُنظر على نطاق واسع إلى بشار الأسد باعتباره عاملاً للإصلاح، لكن (...) لم تكن هناك إصلاحات سياسية جذرية، على الرغم من شكاوى الفساد واسعة النطاق (Otrakji 2012). على أية حال تضمنت إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية إعطاء زخم جديد للتعليم الجماهيري والمواطنة، مع التحرير الاقتصادي الخاضع للسيطرة والذي فتح أسواق جديدة، ولكن من دون الخصخصة التي اجتاحت أوروبا الشرقية. لقد أطلق سراح آلاف عدة من السجناء السياسيين، معظمهم من الإسلاميين والمتعاطفين معهم (Landis and Pace 2007: 47).

(...) على الرغم من إصلاحات السوق، حافظت سورية على نظامها التعليمي والصحي المجاني، وبقية الجامعات الحكومية أيضاً مجانية تقريباً، حتى يومنا هذا، تستقبل مئات الآلاف من الطلاب المسجلين (...).

مع تظاهرات شباط - آذار 2011، كان هناك المزيد من النشاط السياسي (...) معظم جماعات المعارضة المحلية (...) لم تدعم الهجمات المسلحة على الدولة أو التورط مع القوى الأجنبية. بقي معظمهم في سورية وتضامن بعضهم مع الحكومة. وثمة آخرون لا يدعمون الحكومة لكنهم ساندوا الدولة والجيش (...).

معظم ملايين السوريين الذين نزحوا بسبب النزاع، لم يغادروا البلاد بل انتقلوا إلى مناطق أخرى تحت حماية الجيش. هذا لا يمكن أن يحصل لو كان الجيش متورطاً بالفعل في هجمات "عشوائية" على المدنيين. إن الجيش القمعي يثير الخوف والكرهية في أوساط السكان، ولكن في دمشق يمكن للمرء أن يرى أن الناس لا يرتعدون وهم يعبرون العديد من حواجز الطرق التي أقامها الجيش بهدف الحماية من تفجيرات السيارات المفخخة التي يرسلها المتمرّدون.

يعرف السوريون أن جيشهم يمثل سورية التعددية ويحارب الإرهاب الطائفي المدعوم من الخارج. وأن هذا الجيش لم يتميز بالخطوط الطائفية، كما كانت تأمل العصابات الطائفية - وكانت الانشقاقات صغيرة - وبالتأكيد أقل من 2٪.

الانتخابات السورية 2014:

أعلنت العديد من الدول الغربية أن انتخابات سورية [2014] "ثابتة"، قبل إجرائها. كانت هذه هي نفس الحكومات التي تحاول الإطاحة بالحكومة السورية (Herring 2014). زعم صوت أمريكا الذي تديره واشنطن زوراً أن سورية "لن تسمح بمراقبين دوليين" (VOA 2014) (صوت أمريكا 2014). في الواقع جاء أكثر من مئة مراقب للانتخابات من الهند والبرازيل وروسيا والصين وجنوب إفريقيا وإيران وأمريكا اللاتينية، إلى جانب مراقبين غير رسميين من الولايات المتحدة وكندا (KNN 2014; Bartlett 2014)....

اعترفت وسائل الإعلام الدولية بالإقبال الهائل، سواء في سورية أو من اللاجئين في لبنان، واعترفت بعض المصادر على مضمض أن "خروج الناس بأعداد كبيرة، خاصة خارج سورية، هو نصر كبير بحد ذاته (Dark 2014). تحدّثت وكالة أسوشيتد برس عن حشود من عشرات الآلاف في "كرنفال" (carnival like atmosphere) خرجت في دمشق واللاذقية، مع "طوابير طويلة" من الناخبين في حمص (FNA 2014a)، وخلصت أسوشيتد برس إلى أن الرئيس الأسد "حافظ على دعم كبير بين قطاعات كبيرة من السكان" (FNA 2014b)....

قدمت إيفا بارتليت (Eva Bartlett) مزيداً من التفاصيل في "تفكيك رواية حلف شمال الأطلسي حول سورية" (Deconstructing the NATO Narrative on Syria)، 10 تشرين الأول 2015:

مسيرات المليون شخص في 29 آذار 2011 (بعد أقل من أسبوعين على "الثورة" الخيالية) خرج أكثر من 6 ملايين شخص في جميع أنحاء سورية إلى الشوارع لدعم الرئيس الأسد. في حزيران تظاهر مئات الآلاف في دمشق لدعم الرئيس بعلم سوري يبلغ طوله 2.3 كم. في تشرين الثاني 2011 (بعد تسعة أشهر من الفوضى)، نظمت الجماهير مرة أخرى مظاهرات مؤيدة للرئيس الأسد، وخاصة في حمص (ما يسمى "عاصمة الثورة")، وفي درعا (ما يسمى بـ"مسقط رأس" الثورة)، وفي دير الزور والرقبة واللاذقية ودمشق.

لقد حدثت مظاهرات جماهيرية كهذه مراراً وتكراراً منذ ذلك الحين، بما في ذلك في آذار 2012، وفي أيار 2014 في الفترة التي سبقت الانتخابات الرئاسية، وفي حزيران 2015، لملاحظة بعض التظاهرات الكبيرة.

في أيار 2013 لوحظ أنه حتى الناتو اعترف بشعبية الرئيس السوري المتزايدة "فالبيانات التي تم نقلها إلى الناتو خلال الشهر الماضي أكدت أن 70 بالمئة من السوريين يدعمون" حكومة الأسد. في الوقت الحاضر أصبحت 80 بالمئة على الأقل. كان المقياس الأكثر بروزاً لقاعدة دعم الأسد هو الانتخابات الرئاسية في حزيران 2014، والتي حصلت على 74 بالمئة (11.6 مليون) من 15.8 مليون ناخب سوري مسجل، مع فوز الرئيس الأسد بنسبة 88 بالمئة من الأصوات. الطوابير الطويلة التي ذهب إليها السوريون خارج سورية من أجل التصويت أغرقت السفارة السورية في بيروت لمدة يومين كاملين (والمشي لمسافة كيلومترات عدة للوصول إلى هناك)، والسفر من دول فيها سفارات سورية مغلقة إلى مطار دمشق للإدلاء بأصواتهم في داخل سورية. تحدى السوريون مدافع الهاون والصواريخ الإرهابية المصممة لمنعهم من التصويت، حيث تم إطلاق 151 قذيفة على دمشق وحدها، مما أسفر عن مقتل 5 وتشويه 33 سورياً...

- الدستور السوري وعملية الإصلاح السياسي :

إن القسم الآتي مأخوذ من مقالة ستيفن غوانز (Stephen Gowans)، "ما يقوله الدستور السوري عن الأسد والمتمردين"، 21 أيار 2013. يرجى النظر إلى المقالة لملاحظة المصادر المذكورة في الحواشي بين قوسين أدناه، ولمزيد من التفاصيل الإضافية لمراجعة الدستور السوري الجديد. استجابة لمطالب المحتجين قدمت دمشق عدداً من التنازلات التي لم تكن سطحية أو جزئية.

أولاً - ألغت الاحتجاز الطويل الأمد للحريات المدنية الذي أجازته قانون الطوارئ، وهذا القانون الذي تم الاعتراض عليه، لأن سورية في حالة حرب من الناحية الفعلية مع "إسرائيل"، أعطى دمشق السلطات التي تحتاجها لحماية أمن الدولة في زمن الحرب، وهو إجراء تتخذه الدول في حالة حرب بشكل روتيني. على أية حال فإن العديد من السوريين تعرضوا للمضايقات بموجب هذا القانون، واعتبروه مقيداً وهو غير ضروري. رضوخاً للضغوط الشعبية رفعت الحكومة الإجراءات الأمنية.

ثانياً - اقترحت الحكومة دستوراً جديداً يلبي مطالب المتظاهرين لتجريد حزب البعث من مكانته الخاصة، واحتفظت من خلاله بدور قيادي في المجتمع السوري. بالإضافة إلى ذلك ستكون الرئاسة مفتوحة لأي شخص يفي بالمتطلبات الأساسية للمواطنة والعمر والجنسية، وستُجرى الانتخابات الرئاسية بالاقتراع السري كل سبع سنوات في ظل نظام الاقتراع العام.

أو هكذا ما يمكن توقعه، ولكن ما جرى هو قيام المتمردين بتصعيد حربهم ضد دمشق، ورفض الإصلاحات، موضحين ذلك بأنها وصلت متأخرة جداً، أي بعد فوات الأوان؟ أيضاً رفضت واشنطن ولندن وباريس تنازلات الأسد، وقالوا: إنها "بلا معنى"، دون توضيح السبب. ومع ذلك فإن جميع هذه الإصلاحات كان قد طالب بها كل من المتمردين والغرب. كيف يمكن أن تكون بلا معنى؟ بالكاد يمكن إلقاء اللوم على الديمقراطيين الذين يسعون إلى حل سلمي للنزاع، وبهذا الاستنتاج فإن "الديمقراطية لم تكن القوة الدافعة للثورة".⁽¹⁾

⁽¹⁾ Stephen Gowans, **The Revolutionary Distemper in Syria That Wasn't** <https://gowans.wordpress.com/2016/10/22/the-revolutionary-distemper-in-syria-that-wasnt/> (October 22, 2016).

أصول النزاع:

إن المقالة المذكورة أعلاه لإيفا بارتليت تدحض إصدارات وسائل الإعلام الرئيسية للولايات المتحدة/الناتو بشيء من التفصيل. انطلاقاً من إظهار شعبية الرئيس الأسد المستمرة، وتوفر مقالته السيدة بارتليت روابطاً للتحقق من التقارير التي أعدها البروفيسور تيم أندرسون، وشارمين نارواني (Sharmine Narwani)، وآخرون، فيما يتعلق بأسباب النزاع الحالي والجهود لتشويه سمعة حكومة بشار الأسد، وإليكم بعض المقتطفات ذات أهمية:

...منذ البداية، في درعا وفي جميع أنحاء سورية، كان المتظاهرون المسلحون يطلقون النار ويذبحون قوات الأمن والمدنيين. أشار تيم أندرسون في مقاله: "سورية: كيف بدأ العنف، في درعا" إلى أن الشرطة قُتلت على أيدي قناصة في احتجاجات 17 آذار، وأنه لم يتم إحضار الجيش السوري إلى درعا إلا بعد مقتل رجال الشرطة. بالإضافة إلى ذلك تم العثور على مخزن لأسلحة المتظاهرين في مسجد درعا العمري. بريم شانكار جها (Prem Shankar Jha's)، في مقالة "من أطلق الرصاص الأولى؟" وصف ذبح 20 جندياً سورياً خارج درعا بعد شهر، عن طريق حز حناجرهم، وقطع رأس أحد الجنود.

في مقالة "سوريا: المجزرة الخفية"، حققت شارمين نارواني في المذابح المبكرة للجنود السوريين، مشيرة إلى أن العديد من عمليات القتل وقعت حتى بعد أن ألغت الحكومة السورية محاكم أمن الدولة، ورفعت حالة الطوارئ، ومنحت العفو العام، واعترفت بالحق في الاحتجاج السلمي.

في 10 نيسان 2011 تم قتل الفلاح نضال جنود في بانياس والذي كان من أوائل ضحايا جرائم القتل المروعة للمدنيين السوريين من خلال ما يسمى "المتظاهرين غير المسلحين"، وتعرض جنود بوجهه المكشوف والمشوه بالنزف للضرب على أيدي مجموعة من الفوغاء المسلحين، ثم نحروه حتى الموت.

الأب فرانس فان دير لودت -الكاهن الهولندي الذي يعيش في سورية منذ ما يقرب من 5 عقود قبل اغتياله في 7 نيسان 2014 على أيدي مسلحين احتلوا مدينة حمص القديمة -كتب (مراراً وتكراراً) عن "المتظاهرين المسلحين" الذين

شاهدتهم في الاحتجاجات المبكرة أنهم "هم الذين بدؤوا بإطلاق النار على الشرطة أولاً".

- من مقالة شارمين نارواني، "كيف قتلت الروايات الشعب السوري" (How narratives killed the Syrian people): 12 (RT.com) 23 آذار 2016:

...كيف تقتل الكلمات

تم نسج أربع روايات رئيسية بشكل مقزز جداً في كل وسائل الإعلام الغربية السائدة، بدءاً من آذار 2011، واكتسبت قوة في الأشهر المقبلة: "الديكتاتور يقتل شعبه"، "الاحتجاجات سلمية"، "المعارضة غير مسلحة"، "هذه ثورة شعبية".
...بالاستفادة من الإدراك المتأخر، دعونا نلق نظرة على هذه الروايات السورية بعد خمس سنوات من الصراع:

نحن نعلم الآن أن آلاف عدة من قوات الأمن السورية قد قُتلت في العام الأول، ابتداءً من 23 آذار 2011. كما نعلم أيضاً أن المعارضة كانت "مسلحة" من بداية النزاع. لدينا أدلة مرئية على دخول مسلحين سورية عبر الحدود اللبنانية في نيسان وأيار 2011. نعلم من شهادات المراقبين المحايدون أن المسلحين كانوا يستهدفون المدنيين في أعمال إرهابية، وأن "الاحتجاجات" لم تكن كلها "سلمية".
أجرت بعثة جامعة الدول العربية تحقيقاً لمدة شهر في داخل سورية في أواخر عام 2011، وأفادت: "في حمص وإدلب وحماة شهدت بعثة المراقبة أعمال عنف تُرتكب ضد القوات الحكومية والمدنيين، وأسفرت عن سقوط العديد من القتلى والجرحى. ومن الأمثلة على هذه الأعمال قصف حافلة مدنية، وقتل ثمانية أشخاص وإصابة آخرين، بمن فيهم النساء والأطفال، وتفجير قطار يحمل زيت الديزل. وفي حادثة أخرى في حمص تم تفجير حافلة للشرطة، مما أسفر عن مقتل ضابطي شرطة. كما تعرّض خط أنابيب الوقود وبعض الجسور الصغيرة للتفجير".

...علاوة على ذلك، نحن نعرف الآن أنه مهما كانت الأحداث في سورية، فلم تكن "ثورة شعبية". ظل الجيش السوري على حاله، حتى بعد التغطية الإعلامية الشاملة للانشقاقات الجماعية، وواصل مئات الآلاف من السوريين المسير في مظاهرات لم يتم الإبلاغ عنها لدعم الرئيس الأسد. ظلت مؤسسات الدولة ونخبة

الحكومة ورجال الأعمال موالين للأسد. وأن جماعات الأقليات، ومعها وحزب البعث الذي يمثل أغلبية الشعب، لم تنضم إلى المعارضة ضد الحكومة. وما زالت المناطق الحضرية الكبرى والمراكز السكانية تحت مظلة الدولة، مع وجود استثناءات قليلة.

فالثورة "الحقيقية" في النهاية، لا تملك غرف عمليات في الأردن وتركيا، والثورة "الشعبية" لا تمولها وتسليحها وتساعدتها قطر والسعودية والولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا.

من بريم شانكار جها: من أطلق الرصاصة الأولى؟ (Hands Off Syria Sydney,)

(Feb 27, 2014

...السوريون الذين قابلتهم في تشرين 2012 في دمشق ... أخبروا هذه القصة: كان الأسد يرغب بصدق في البدء بالانتقال إلى الديمقراطية قبل عقد من الزمن، لكنه اضطر إلى تأجيل التغيير مراراً وتكراراً بسبب الاضطرابات المتنامية في الجوار السوري: غزو الولايات المتحدة للعراق عام 2003، اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري والمحاولة المنسقة لإخراج سورية من لبنان عام 2004؛ قرار واشنطن بقطع العلاقات الدبلوماسية مع دمشق عام 2005، الهجوم الإسرائيلي على لبنان في عام 2006، وحصارها لفلسطين في عام 2007، وقصفها لغزة في عام 2009. فيصل المقداد، نائب وزير الخارجية السوري وممثلها الدائم السابق في الأمم المتحدة، لخص محاولة الأسد على النحو الآتي: هذه الأحداث ذكّرنا بضرورة الوحدة في مواجهة الضغوط والتهديدات الخارجية، وأجبرتنا على تأجيل الديمقراطية خوفاً من اندلاع صراعات داخلية جديدة وفرض تعديلات قد لا يمكننا تحملها!

من شارمين نارواني، سورية: المذبحة الخفية (The hidden massacre)

(, May 7, 2014RT.com)

في الآونة الأخيرة، قال جهادي تونسي اسمه أبو قصي للتلفزيون التونسي: إن "مهمته" في سورية كانت تدمير وتدنيس المساجد بأسماء الصحابة (مسجد أبو بكر، مسجد عثمان، إلخ) في هجمات طائفية زائفة، لتشجيع انشقاق الجنود

السوريين، (ومعظمهم من السنة). كان أحد الأشياء التي قام بها هو ترديد الشعارات المؤيدة للحكومة والكتابة على جدران المساجد مثل "الله، سوريا وبشار وبس". لقد كان "تكتيكاً" كما يقول، لجعل الجنود "يأتون إلى جانبنا"، بحيث الجيش "يمكن أن يصبح ضعيفاً..."

للحصول على إشارة أخرى للطبيعة المستمرة للتهديد الأمريكي لسورية، راجع باتريك هيننغسن (Patrick Henningsen)، "العمل التنفيذي الجديد لأوباما يفتح الباب لأسلحة غير محدودة للإرهابيين السلفيين في سورية"، 8 كانون الأول 2016؛ ولزيد من الإشارة إلى استمرار التهديد الإرهابي وضرورة اتخاذ إجراءات سريعة الاستجابة، انظر إلى البيان الصحفي للديموقراطي تولسي جابارد (Tulsi Gabbard) الذي يقدم تشريعاً لوقف تسليح الإرهابيين، 8 كانون الأول 2016. فيما يلي بعض المقتطفات الإضافية من بعض المواد الحديثة مفيدة للغاية وغنية بالمعلومات:

* من بول لارودي، (Paul Larudee) "التقارير حول النزاع السوري غير عادية بالنسبة لمدى المعلومات الملققة" في 31 آب 2016.

صحافة المسلم: كيف يتم تحليل العملية لتحرير حلب؟

بول لارودي: ... بالطبع، أنه من الممكن تدمير منطقة شرق حلب بالقنابل وجعلها في غياهب النسيان، ولكن لا يزال هناك عدد كبير من السكان المدنيين، لذا فإن الحكومة السورية لا تفعل ذلك، لكنها أنشأت ثلاث مناطق لاستقبال المدنيين المغادرين من المنطقة الخطرة. هكذا استعاد الجيش السوري معظم المناطق، مثل حمص والغوطة والقلمون، إلخ. ولهذا السبب لديهم واحدة من أدنى نسب الخسائر في صفوف المدنيين / المقاتلين في أي حرب، على الرغم من أن إجمالي عدد الضحايا على مدى خمس سنوات هو مأساة كبيرة... .

النائب: ما رأيك في وسائل الإعلام التي تنشر الصراع السوري؟ هل يصورون صورة حقيقية للحرب بحقائق وأدلة ملموسة؟

بول لارودي: منذ أكثر من 2500 عام، كتب الكاتب المسرحي اليوناني إيشيلوس (Aeschylus)، "في الحرب، الحقيقة هي الضحية الأولى". لم يتغير هذا.

كالعادة يتم استخدام وسائل الإعلام كأدوات للحرب، وحتى المنظمات غير الحكومية تقدم معلومات خاطئة ومنحازة وفقاً لمصدر تمويلها. على أية حال لا بد لي من القول: إن التقارير الإعلامية عن سورية أمر غير معتاد بالنسبة لمعلومات ملفقة، بما في ذلك الصور ومقاطع الفيديو التي ليست أكثر من مسرح أو هي حقيقية، ولكن من أماكن مختلفة تماماً عن التي تم التبليغ عنها. يتم إعادة استخدام بعضها من أماكن أخرى وأحياناً لا يتم استخدامها حتى في سورية.

*من كتاب "الوقوف إلى جانب سورية" (Standing By Syria) بقلم مارغريت كيمبرلي (Margaret Kimberley) الذي أعيد نشره في عمود الحرية رايدر لتقرير جدول الأعمال الأسود (Black Agenda Report):

قد تغير جبهة النصرة اسمها في محاولة للعلاقات العامة، لكنها لا تزال القاعدة ولا تزال حليفة للولايات المتحدة. قد لا يستطيع دونالد ترامب الذي لا يمكن التنبؤ به أن يشرح أنه تحدث عن الحقيقة عندما اتهم أوباما وكلينتون بأنهما من داعمي داعش، ولكن يجب أن تكون الحركة المناهضة للحرب قادرة على توضيح ذلك من دون أي مشكلة. إن وقف الأعمال العدائية هو خدعة تهدف إلى حماية الأصول الأمريكية كلما فاز الأسد. إذا كان الاهتمام برفاهية السوريين هو الشغل الشاغل، فيجب أن تتوحد الحركة المناهضة للحرب الأمريكية في إدانة حكومتهم من دون تحفظ أو تردد.

* كيف يمكن أن تنتهي الحرب؟

السيد الأسد يعتقد أن الحرب يمكن أن تنتهي بسرعة إذا سحبت الحكومات الأجنبية التي تدعم الإرهابيين دعمها. ورداً على سؤال حول: متى يمكن للسوريين الذين فروا من الحرب العودة، قال الأسد:

إذا نظرنا إلى الأمر وفقاً للعوامل السورية الداخلية، سأقول: إنه قريباً جداً، بضعة أشهر، وأنا متأكد من ذلك، أنا لا أبالغ، لكن عندما نتحدث عنه كجزء من صراع عالمي و صراع إقليمي، عندما يكون لديك العديد من العوامل الخارجية التي لا يمكنك التحكم فيها، سيستمر الأمر ولا يمكن لأحد في هذا العالم أن يخبرك بموعد، ولكن البلدان والحكومات والمسؤولين الذين يدعمون الإرهابيين

مباشرة هم وحدهم يعرفون، لأنهم يعرفون متى سيتوقفون عن دعم هؤلاء الإرهابيين، وهذا هو المكان الذي سيتم فيه حل الوضع في سورية دون أي عقبات حقيقية.

***المزيد من 'لماذا لا يريدنا العرب في سورية' بقلم روبرت كينيدي الابن، المذكور أعلاه:**

ما هو الحل؟ ... باستخدام نفس الصور واللغة التي دعمت حربنا عام 2003 ضد صدام حسين، قاد قادتنا السياسيين الأميركيين إلى الاعتقاد بأن تدخلنا في سورية هو حرب مثالية ضد الطغيان والإرهاب والتعصب الديني. ... ولكن ... فقط عندما نرى أن هذا الصراع بمثابة حرب بالوكالة على خط أنابيب تصبح الأحداث مفهومة. ... ملايين اللاجئين الذين يتدفقون الآن إلى أوروبا هم لاجئون من حرب خطوط الأنابيب وفوضى وكالة المخابرات الأمريكية المركزية....

... لنواجه الأمر: ما نسميه "الحرب على الإرهاب" هو مجرد حرب نفطية أخرى. لقد أهدرنا 6 تريليونات دولار على ثلاث حروب في الخارج وعلى بناء دولة حرب ذات أمن وطني في الداخل منذ إعلان رجل النفط ديك تشيني "الحرب الطويلة" في عام 2001. والفائزون الوحيدون هم المقاولون العسكريون وشركات النفط التي حققت أرباحاً تاريخية، ووكالات الاستخبارات التي نمت بشكل كبير ومؤثر في السلطة، وذلك على حساب حرياتنا وعلى الجهاديين الذين استخدموا تدخلاتنا دائماً كأداة تجنيدهم الأكثر فعالية. لقد قللنا من قيمنا، ونذبح شبابنا، وقتلنا مئات الآلاف من الأبرياء، وأفسدنا مصلحتنا وهدرنا كنوزنا الوطنية في مغامرات عقيمة ومكلفة في الخارج. ...

...على مدى العقود السبعة الماضية، قام الأخوان دالاس، وعصابة تشيني، والمحافظون الجدد وأمثالهم ... بنشر أجهزةنا العسكرية والاستخباراتية لخدمة المصالح التجارية للشركات الكبرى، وخاصة شركات البترول والمقاولين العسكريين الذين امتنوا حرفة القتل من هذه الصراعات.

لقد حان الوقت للأمريكيين لتحويل أمريكا عن هذه الإمبريالية الجديدة والعودة بها إلى طريق المثالية والديمقراطية. يجب أن ندع العرب يحكمون الجزيرة العربية ونحول طاقاتنا إلى المسعى الكبير لبناء الأمة في الوطن. نحتاج أن نبدأ هذه

العملية، ليس عن طريق غزو سورية، ولكن عن طريق إنهاء الإدمان المدمر على النفط الذي شوه السياسة الخارجية للولايات المتحدة منذ نصف قرن.

*في معركة حلب:

ركزت التغطية الإعلامية السائدة في سورية مؤخراً على ما تسميه الولايات المتحدة "جرائم حرب" في معركة حلب، أكبر المدن السورية. لكن معظم وسائل الإعلام الغربية لم تقترب أبداً من حلب، وكانت في بيروت، وهي ليست حتى في سورية. للحصول على المعلومات الخاصة بهم تعتمد هذه الوسائط غالباً على الحكومة الأمريكية أو مجموعات كالحوذ البيض الذين يحصلون على تمويل من الولايات المتحدة وغيرها ممن يحاولون الإطاحة بالحكومة السورية، كما يشير الصحفي المخضرم باتريك كوكبورن (Patrick Cockburn):

ومع ذلك سافرت الصحفية المصورة فانيسا بيلي (Vanessa Beeley) مؤخراً إلى سورية، بما في ذلك إلى حلب، وأصدرت تقريراً من جزئين، وكشف كلاهما عما يسمى "الحوذ البيض" ومقابلات مع أعضاء الدفاع المدني الحقيقي في سورية، يمكنك رؤيته وقراءته في الموقع :

<http://www.mintpressnews.com/journey-to-aleppo-exposing-the-truth-buried-under-nato-26>

[propaganda/220563/ and http://www.mintpressnews.com/journey-aleppo-part-ii-syria-civil-defense-aleppo-medical-association-real-syrians-helping-real-syrians/220817/.](http://www.mintpressnews.com/journey-aleppo-part-ii-syria-civil-defense-aleppo-medical-association-real-syrians-helping-real-syrians/220817/)

يعيش أكثر من 1.5 مليون مدني في غرب حلب التي تسيطر عليها الحكومة، بمن فيهم 600000 فروا من شرق حلب. قدرت جمعية حلب الطبية أن حوالي 200000 كانوا يعيشون في شرق حلب التي يحتلها الإرهابيون، بمن في ذلك 50.000 من "المتمردين" وعائلاتهم، قبل أن يستعيد الجيش السوري وحلفاؤه المدينة بأكملها مؤخراً.

كان من الممكن أن تكون القوات الحكومية قد اكتسحت شرق حلب منذ زمن بعيد، لكنها امتنعت عن ذلك بسبب قلقها على المدنيين. لقد عرض الأسد مؤخراً مساعدة لإعادة تعديل أحوال المدنيين الذين يغادرون شرق حلب وحتى للمتمردين المقاتلين السوريين الذين يلقون سلاحهم. لكن المتمردين استمروا في

ضرب غرب حلب يومياً بالأسلحة، بما في ذلك "قذائف الجحيم" التي تطلق عبوات الغاز المليئة بالمتفجرات والزجاج والشظايا وحتى المواد الكيميائية. تسبب القصف الإرهابي لغرب حلب بمثل هذه الأسلحة بإلحاق أضرار فادحة بالمدنيين هناك، بمن فيهم الأطفال، لكنه كان غير مرئي على ما يبدو لوسائل الإعلام الرئيسية.

*يخلص المحلل البيبي إسكوبار (Pepe Escobar) إلى أن الولايات المتحدة تدير حصار الموصل بطريقة تسمح للجهاديين بالهروب من الموصل حتى يتمكنوا من الانضمام إلى مقاتلي داعش في سورية، انظر الموقع

Pepe Escobar, **The Aleppo / Mosul Riddle**, <http://www.counterpunch.org/2016/10/21/the-aleppo-mosul-riddle/> (October 21, 2016).

إن أسطورة "المتمردين المعتدلين"، دعم الأسد المستمر في سورية، والأسباب الحقيقية للتدخل الأمريكي في سورية، والأوهام التي لا تزال سائدة في واشنطن الرسمية ويتم ترديدها بشكل بيغائي من وسائل الإعلام الرئيسية، ومحنة الشعب السوري، والمخاطر التي يشكلها الصراع المستمر من أجل السلام العالمي، إلخ، يتم سردها هنا مع مواد إضافية حول هذه الموضوعات وغيرها في ترتيب زمني بحسب تاريخ النشر المبين أدناه في لائحة المراجع.

على الرغم من أن هذه المقالة كتبت قبل الانتخابات الرئاسية الأخيرة، إلا أنني أدرجها هنا؛ لأن مايك ويتني (Mike Whitney) يطور فيها ما أعتقد أنه تشبيه مفيد:

يحتاج الشعب الأمريكي إلى فهم ما يجري في سورية. لسوء الحظ إن وسائل الإعلام الرئيسية تنشر فقط دعاية صديقة لواشنطن، مما يجعل من الصعب فصل الحقيقة عن الخيال. إن أفضل طريقة لتجاوز الأكاذيب والتضليل استخدام تشبيه بسيط من شأنه أن يساعد القراء على أن يروا أن سورية ليست في خضم حرب أهلية طائفية معقدة، ولكنها ضحية أخرى لعملية تغيير نظام تشنّها واشنطن لإسقاط حكومة بشار الأسد.

مع وضع ذلك في الاعتبار حاول أن تتخيل فيما إذا كان عمال صناعة الملابس المضربون في مدينة نيويورك قد قرروا تسليح أنفسهم والاستيلاء على أجزاء من

مدينة مانهاتن الأمريكية. ودعنا نقل: إن رئيس الوزراء الكندي جوستين ترودو (Justin Trudeau) قرر أن يزيد من نفوذه الجغرافي السياسي عن طريق تجنيد المتطرفين الإسلاميين وإرسالهم إلى نيويورك للانضمام إلى العمال المضربين. دعنا نقل: إن خطة ترودو نجحت وإن ميليشيات المتمردين قادرة على الاستيلاء على مجموعة واسعة من الأراضي الأمريكية، بما في ذلك معظم الساحل الشرقي الممتد حتى منتصف الغرب، بعد ذلك - على مدار السنوات الخمس المقبلة - بدأت هذه القوى الجهادية نفسها في تدمير معظم البنى التحتية المدنية في جميع أنحاء البلاد، وإجبار ملايين الناس على ترك منازلهم وأعمالهم التجارية، ومطالبة الرئيس أوباما بالتحج من منصبه حتى يتمكنوا من استبداله بنظام إسلامي من شأنه أن يطبق الشريعة الإسلامية الصارمة.

أود أن أتحدث عن نقطة واحدة فقط: إن فهمي، إلى حد كبير من مقالة ستيف غوانز (Steve Gowans) الرائعة، هو أن المحتجين الأصليين في آذار 2011 كانوا مزيجاً من الجهاديين والإخوان المسلمين الذين تم استيرادهم من ليبيا. لذلك لم يتم إرسال الجهاديين لاحقاً، لكنهم كانوا هناك بالفعل منذ البداية، والعديد منهم لم يكونوا من مواطني سورية؛ لذلك لا أعتقد حقاً أن مزيج المتطرفين المحليين والمستوردين يمكن مقارنته إلى حد ما مع عمال الملابس المفترضين في مدينة نيويورك. ولكن إذا أوضحنا هذه النقطة حول أصل الصراع، فإن هذا التشبيه شامل وواضح إلى حد كبير.

Rick Sterling, The 'White Helmets' controversy in Syria (October 23, 2016),

المراجع باللغة الإنكليزية:

- Eva Bartlett, Liberated Homs Residents Challenge Notion of “Revolution,” July 8, 2014, <http://www.ipsnews.net/2014/07/liberated-homs-residents-challenge-notion-of-revolution/>
- Eva Bartlett, Western corporate media ‘disappears’ over 1.5 million Syrians and 4,000 doctors, <https://www.sott.net/article/325238-Western-corporate-media-disappears-over-1-5-million-Syrians-and-4000-doctors>, August 14, 2016
- Prof. Tim Anderson, Why Syrians Support Bashar al Assad, Global Research, September 30, 2014, <http://www.globalresearch.ca/why-syrians-support-bashar-al-assad/5405208>.
- Prof. Tim Anderson, Syria: ‘Moderate Rebel’ Massacres and Everyday Propaganda, December 16, 2015, Telesur; <http://www.syriasolidaritymovement.org/2016/01/03/syria-moderate-rebel-massacres-and-everyday-propaganda/> January 3, 2016.
- Mairead Maguire | (Inter Press Service), Syrian Peace Groups: This is not a Civil War, it is a Set of Foreign Invasions, January 5, 2016, <http://www.juancole.com/2016/01/syrian-peace-groups-this-is-not-a-civil-war-it-is-a-set-of-foreign-invasions.html> and <http://peacenews.org/2016/01/05/syrian-peace-groups-this-is-not-a-civil-war-it-is-a-set-of-foreign-invasions/>.
- Stephen Gowans, U.S. Role as State Sponsor of Terrorism Acknowledged in U.S. Congressional Research Service Report on Syria Conflict, Global Research, January 11, 2016, what’s left 10 January 2016.
- Vanessa Beeley, Syria: Aleppo Doctor Demolishes Imperialist Propaganda and Media Warmongering, June 15, 2016, <http://21stcenturywire.com/2016/06/15/syria-aleppo-doctor-demolishes-imperialist-propaganda-and-media-warmongering/>
- Alexander Mercouris, Washington does the unthinkable, kills Syrian troops and helps ISIS, September 18, 2016, <http://theduran.com/as-moscow-complains-about-us-foot-dragging-washingtons-throws-a-tantrum-bombs-syrian-troops-and-helps-isis/>
- Mike Whitney, Rogue Mission: Did the Pentagon Bomb Syrian Army to Kill Ceasefire Deal?, September 20, 2016, <http://www.counterpunch.org/2016/09/20/rogue-mission-did-the-pentagon-bomb-syrian-army-to-kill-ceasefire-deal/>

- Vanessa Beeley, Journey To Aleppo: Exposing The Truth Buried Under NATO Propaganda, September 20, 2016, <http://www.mintpressnews.com/journey-to-aleppo-exposing-the-truth-buried-under-nato-propaganda/220563/> (Part I) and <http://www.mintpressnews.com/journey-aleppo-part-ii-syria-civil-defense-aleppo-medical-association-real-syrians-helping-real-syrians/220817/> (Part II).
- Alexander Mercouris, Making up the news: How the Western media misreported the Syrian convoy attack, September 21, 2016, <http://theduran.com/making-news-western-media-misreported-syrian-convoy-attack/>
- Felicity Arbuthnot, Syria: Attack on Aid Convoy Kills Twenty, Destroys Aid, And Obliterates U.S. War Crimes in Support of ISIS-Daesh Terror Group?, September 21 2016, <http://www.globalresearch.ca/syria-attack-on-aid-convoy-kills-twenty-destroys-aid-and-obliterates-us-war-crimes-in-support-of-isis-daesh-terror-group/5547059>
- Vanessa Beeley, The REAL Syria Civil Defence Expose Nato's 'White Helmets' as Terrorist-Linked Imposters, September 23, 2016, <http://21stcenturywire.com/2016/09/23/exclusive-the-real-syria-civil-defence-expose-natos-white-helmets-as-terrorist-linked-imposters/>

دعوة... إلى الإعدام

الكاتب: أندريه فيسفولوجسكي

ترجمة: د. إبراهيم إستنبولي

توجّه حامل الكنية الأكثر "فضاعة"، بحسب اعتقاده هو بالذات، غيوتن (المقصلة) في أواخر حياته إلى السلطات الفرنسية، في عهد نابليون بونابرت، بطلب تغيير تسمية الأداة الفظيعة التي تستخدم خصيصاً لتنفيذ أحكام الإعدام والتي تحمل كنيته؛ بيداً أن طلبه قوبل بالرفض. عندئذ راح النبيل جوزيف إيغناس غيوتن يفكر، بعد أن توسّل الغفران من أسلافه، كيف له أن يتخلّص من الكنية السلبية التي لطالما كانت كنية محترمة...

من غير المعروف على وجه الخصوص فيما إذا نجح في تحقيق رغبته تلك أم لم ينجح، إلا أن أخلاف غيوتن أو من يحمل مثل هذه الكنية اختفوا تماماً وبشكل نهائي من حقل نظر جميع المؤرخين.

ولد جوزيف إيغناس غيوتن Joseph Ignace Guillotin في 28 أيار من عام 1738 في مدينة سانت الريفية الصغيرة في عائلة محام متواضع. ومع ذلك فقد تشربّ جوزيف منذ نعومة أظفاره إحساساً مفرطاً بالعدل نقله له والده الذي لم يكن يقبل أن يدافع عن أي متهم مهما كان مبلغ المال الذي يُعرض عليه كأتعاب، ما لم يكن واثقاً ومتأكدًا من براءته. هناك رواية مفادها أن جوزيف نفسه راح يقنع أباه

بأن يضعه تحت إشراف الآباء اليسوعيين، حيث كان ينوي أن يخدم في الدير حتى آخر أيامه. ليس معروفاً السبب الذي جعل غيوتن الفتى يغيّر رأيه ويتخلى عن تلك الرغبة الشريفة، بل أن يصبح وبصورة مفاجئة تماماً طالباً في كلية الطب في جامعة رايمس في البداية ثم في جامعة باريس التي تخرّج فيها بتفوق باهر في عام 1768.

وسرعان ما أصبحت محاضراته في علم التشريح والفيسيولوجيا مقصداً للراغبين في الاستماع إليه لدرجة أن مكان إلقاء المحاضرة لم يعد يتسع للجميع. ثمة صور ومقتطفات من مذكرات تصوّر الطبيب الشاب صغير الحجم ببنيته المتناسقة والمتأدب في أسلوبه، يمتلك فصاحةً منقطعة النظير، وقد شغّت عيناه بهجةً وحماسةً.

وأكثر ما يثير الدهشة هو ذلك التغيير الجذري في آراء ومواقف من كان في يوم من الأيام يخطط ويفكّر لأن يصبح راعياً في كنيسة. ذلك أن محاضرات غيوتن وقناعاته الشخصية بالذات كانت تؤكد على وجود إيمان عميق لديه بالمادية كمذهب. حينذاك لم يكن النسيان قد طوى أولئك الأطباء العظام من أمثال باراسيلس وأغريبا (□) ووالده وابنه فان هيلمونت، كما كان من الصعب التتكر لتلك التصورات بشأن العالم على أنه جسم حي. بيد أن العالم الشاب غيوتن راح يشكك بنظرية باراسيلز القائلة: إن "الطبيعة والفضاء وجميع معطياته - عبارة عن كلٍ عظيم واحد، أو عبارة عن جسم تتناغم جميع الأشياء فيه بين بعضها بعضاً، وأنه ليس ثمة ما هو ميت. وإن الحياة ليست مجرد حركة فحسب، وإنه لا يحيا البشر والحيوانات فقط، بل كل الأشياء المادية. إنه لا يوجد موت في الطبيعة. إن انطفاء أي معطى ما هو سوى غوص أو انغماس في شكل آخر للمادة، أي انحلال الولادة الأولى ونشوء طبيعة جديدة".

كل ذلك كان، من وجهة نظر غيوتن، عبارة عن موقف مثالي خالص لا يتوافق مع القناعات المادية المعاصرة لعصر النهضة التي تنزع بقوة نحو السيطرة

(1) هاينريش كورنيليوس أجريبا - 1486 - (1535) كان ساحراً ولاهوتياً ومنجماً وخيميائياً ألمانياً.

والرسوخ. وقد راح يتباهى ويتفاخر، مثله مثل زملائه علماء الطبيعة الآخرين في عصره، بصداقته وبمعارفه من أمثال فولتير وروسو وديدرو وهولباخ ولامارتين. فانطلق غيوتن يردد ويكرر، من على منبر كلية الطب بمنتهى الصراحة وبكل بساطة تعويذة العصر الجديدة: التجربة، الاختبار - الاختبار، التجربة. وأن الإنسان عبارة عن آلة، يتألف من براغي ووصلات، وأنه يكفي ويجب أن نتعلم كيف نركبها وكيف نجمعها مع بعضها، وسوف يكون كل شيء على ما يرام. لقد كان لامارتين هو صاحب مثل تلك الأفكار، بوجه خاص، إذ كان هذا المفكر التثويري العظيم قد راح يؤكد في كتابه "الإنسان - الآلة" على ما بات معروفاً ومألوفاً جداً في يومنا هذا من أن الإنسان ليس سوى شكل من أشكال المادة في أرفع وأعقد تنظيم لها. وأن أولئك الذين يعتقدون أن وجود التفكير يفترض وجود روح من طبيعة غير مادية هم بلهاء ومثاليون ومشعوذون لا أكثر. من ذا الذي رأى أو لمس مثل تلك الروح يوماً ما؟ وأن ما يسمى "الروح" تكف عن كينونتها بمجرد أن يحدث موت الجسد. وهذا أمر بديهي وبسيط وفي منتهى الوضوح.

لذلك كان من الطبيعي أن يقوم أطباء الأكاديمية الطبية في باريس، بمن فيهم غيوتن الذي كان أحد أعضائها، بالتضامن مع بعضهم وبالتعبير عن احتجاجهم حين ظهر في العاصمة في شباط من عام 1778 "المعالج أو الطبيب الشعبي" النمساوي فرانتس أنطون ميسمر الذي كان مشهوراً بأنه اكتشف السائل (الفلويد) المغناطيسي، وكان أول من استخدم التتويم في العلاج. لقد قام ميسمر بدراسة ومتابعة أفكار أستاذه فان هيلمونت، وكان أول من اكتشف بطريقة تجريبية "إمبريقية" آلية الإحياء النفسي، بيد أنه كان يعتقد أنه يدور في جسم المعالج سائل خاص - "الفلويد المغناطيسي" الذي تقوم الأجرام السماوية من خلاله بالتأثير على المريض. لقد كان على قناعة تامة بأن المعالجين الموهوبين يستطيعون تمرير Passes هذه السوائل للأشخاص الآخرين، مما يؤدي إلى شفائهم.

أنا مستعد لأن أضع رأسي على هذا النطع - راح الدكتور غيوتن يؤكد بحماسة ملتهبة من دون أن يتمكن من ضبط نفسه في جداله الطويل مع شقيق الملك لويس السادس عشر، الكونت بروفانسكي - وأجزم بأن هذا مستحيل؛ لأنه مستحيل ونقطة على السطر!

مستحيل! ولكن هذا ما حدث. روى الكونت للدكتور غيوتن كيف أن ميسمر شفى من العمى ابنة الأسرة الملكية النمساوية ماريا تيريزا. وليس وحدها فقط. فقد تبين أن أفراد الأسر الملكية وأشرف أوروبا كانوا -ومنذ فترة طويلة جداً - يلجؤون في الحالات المستعصية إلى خدمات ذلك "المشعوذ".
مجرد توهّم! - احترم غيوطن - لا أكثر ولا أقل...

كانت الملكة الفرنسية ماريا أنطوانيت ذات طبيعة متهورة و متحمسة جداً وسريعة الولوج، فقربت منها النمساوي واستقبلته في قصر تيوليري في أثناء اللقاءات الأكثر احتفالية وجرأة مع الأميرة دي لامبال والأمير دي كوندي. وإذ عرف غيوتن بذلك فقد شعر بأنه طعن. ذلك أنه كان يوجد في أعماق روحه طموح لأن يصبح أفضل طبيب في فرنسا، صاحب النظر الثاقب والأكثر احتراماً، وربما الأكثر تأثيراً. بكلمة أخرى، أن يبلغ درجة من الحظوة تدفع حتى الملك لأن يرفع له القبة... بيد أنه كان عليه أن يكون متواضعاً في حلمه وأن يحلم بحذر.

وفي أحد الأيام غير البعيدة مرض الكونت بروفانسكي، وقد كانت جميع الأعراض تشير إلى اضطراب عصبي لديه. لم تتجح وصفات غيوتن المختلفة من حقن شرجية ومساحيق دوائية في تحسين حالة الكونت. وعندما جاء الكونت سان جيرمان بالطبيب النمساوي ميسمر إلى المريض كان غيوتن موجوداً في مكانه عند سرير الكونت بروفانسكي. التقت أعين الطبيبين: كان النمساوي يزر عينيه بمكر، أما غيوتن فقد رحب بغطرسة وبنشافة وطلب السماح له بحضور جلسة العلاج. قاموا بتمديد المريض على "الديوان"، ثم راح ميسمر يقوم ببعض الحركات فوقه. بعد بضع دقائق غفا الكونت، فقام ميسمر بعد ذلك بوضع مغناطيسيته الإثنتين المشهورين على جبين المريض، فقد كان يعتقد أنهما يقومان بسحب المرض من جسم المريض وأنهما يجذبان الداء إلى بعضهما. كان غيوتن واقفاً في الزاوية وهو يتسم بصمت. ولكن بعد ثلاث جلسات من العلاج شفى المريض عالي المقام، وأما غيوتن فقد أصيب بالخزي هو وعلمه المتقدم.

ولكن، وكما يحدث في التاريخ مع الناس من أمثال ميسمر، فقد راح يثير الريبة والشكوك في أنه يعتمد السحر الأسود والشعوذة. كان الطبيب النمساوي لا يتقاضى أجوراً على علاج الفقراء في المستشفى، غير أنه كان ينتزع أتعاباً كبيرة

جداً من الوجهاء والأشراف تفوق كل الخيال؛ عدا ذلك اقترحت عليه الحكومة الفرنسية ما يعرف اليوم برعاية تجاربه. فراحت تصل إلى مسامع الملك لويس 16 اتهامات بأنه احتضن محتالاً سبق وتم طرده من العواصم الأخرى. فكان الملك يغامر تحت تأثير السهام السامة التي يطلقها عليه العلماء الفرنسيون ذوو النزعة المادية أن يدخل التاريخ بأنه جاهل ومتخلف، في حينه كان يريد أن يبدو على العكس من ذلك، أي أن يشتهر بأنه تقدمي في فكره وداعم للعلم. ولذلك فقد قرر الملك لويس السادس عشر أن يعين لجنة تقوم بدراسة جوهر المعالجة التي يجريها ميسمر ومضمونها. وشاءت الأقدار - وبقرار من الملك - أن أصبح غيوتن عضواً في اللجنة المذكورة إلى جانب شخصيات معروفة، مثل بنيامين فرانكلين الذي كان يشغل منصب السفير الأمريكي في باريس وقتذاك، وعالم الفلك جان بيلي، والكيميائي المشهور لافوازيه وعالم النبات جوسيبه...

وفي 11 آب من عام 1784 قدّمت اللجنة تقريرها إلى الملك، وقد جاء فيه أن المراقبين أناس شرفاء ولا يمكنهم أن يقدموا شهادات كاذبة، وبالتالي عليهم أن يعترفوا بأنه تمّ شفاء 85% من مراجعي السيد ميسمر بشكل كامل بواسطة "الفلويد المغناطيسي". لكن المسألة برمتها تكمن في أن "عملية تأثير الفلويد غير قابلة للقياس والمراقبة التجريبية"، وبناء على ذلك فإن اللجنة ترى أن مثل هذه الظاهرة لا يمكن أن تكون واقعية. فما الذي يحدث إذاً يطرح السؤال نفسه؟ فكان جواب اللجنة هو كما يأتي: إن المرضي يتوهمون شفاءهم. هلل وابتهج غيوتن - لقد أقتعت اللجنة الملك بإصدار مرسوم يقضي بمنع ميسمر من العلاج بالفلويد المغناطيسي ضمن الأراضي الفرنسية.

عندما كان ميسمر يستعد لمغادرة فرنسا غير المضيافة أقامت الأميرة دي لامبال عشاء وداعياً على شرفه، وكان الدكتور غيوتن من بين المدعويين. وبعد أن شرب الجميع كمية لا بأس بها من مختلف أنواع النبيذ، نهض ميسمر فجأة وراح يحدّق مباشرة في عيني غيوتن ثمّ قال بصوت يكفي لأن يسمعه الجميع:

سوف يقضي علمك وحساباتك على جميع الحاضرين هنا بمن في ذلك أبناء الأسرة الملكية وحتى الملك نفسه... تلعثم وسعل ثم أردف: وسوف تلعنكم أرواحهم. إنني أرى ذلك بكل وضوح.

فأجابه غيوتين متهكماً:

أأنت ترى ذلك مكتوباً هنا على الطلاء الذهبي للسقف؟

إني أرى ذلك مكتوباً على السماء، مسيو - قال ميسمر وهو ينحني بتأدب.

... كانت فرنسا تغلي وكل شيء فيها يفور، وقد بدأ ما هو جديد يتأهب للظهور والحلول مكان القديم الذي راح يحترق. كانت أفكار الحرية والمساواة والأخوة تحوم في كل مكان. ففي الساحات كانت تتلى أشعار ديدرو وفولتير ذات النزعة التحريرية والمضمون الإباحي إلى حد ما، كما كانت توزع في الشارع منشورات وقصائد هجائية بحق الأسرة المالكة.

وفي تلك الفترة بالضبط شهدت حياة غيوتين حدثاً عظيماً، تم تسميته إلى المحفل الماسوني "الشقيقات التسع". ويكفي أن نشير إلى أن من بين أعضاء ذلك المحفل كان فولتير، وفرانكلين، ودانتون، وبريسو، وغيرهم من الشخصيات المعروفة والمشهورة.

ذلك أنه بعد أن تم في عام 1717 تأسيس المحفل الماسوني العظيم في إنكلترا، فقد راحت الماسونية تنتشر في مختلف بلدان أوروبا. كان شعار الماسونية المكتوب على رايتها: قطع أي صلة بالماضي، القضاء على المجتمع القائم الناقص وغير المكتمل، وتأسيس مجتمع جديد عادل وعقلاني لمواطني عقلانيين وكاملين. وقد اتخذت حياة غيوتين منحى مختلفاً تماماً بفضل مشاركته في النشاط الماسوني. ويرجع أن يكون الأخوة هم الذين أقنعوا غيوتين في أن السياسة هي الأكثر أهمية وقتذاك. لقد كان من باب الوهم ذلك الرأي القائل: إن الماسون لا يعملون ولا يكثرثون بالسياسة، بل يهتمون ويشغلون. وأكثر من غيرهم بكثير! وعلى نحو خاص أولئك المهيمنون على العقول، من أمثال: فولتير وديدرو والمببر الذين كانوا مشبعين بكرهية عميقة تجاه المسيحية، وتجاه النظام الملكي في الحكم. لذلك راح هؤلاء يطالبون في عظاتهم السياسية بالإصلاحات وبتغييرات جذرية في كامل العلاقات الاجتماعية. كما راح مونتسكيو يبشّر بنظرية الفصل بين السلطات ويدعو إلى اعتماد الصيغة الإنكليزية للحكم في فرنسا، حيث تكون السلطة التشريعية بيد الشعب، والسلطة التنفيذية في يد الملك، وأما السلطة

القضائية فتكون بيد مجموعة من القضاة المستقلين. لم يعر الملك لويس XVI ولا زوجته ماريا أنطوانيت في البداية أدنى اهتمام لانتشار الحركة الماسونية، بل وأكثر من ذلك راحا يرحبان بها كنوع مختلف من النشاط الخيري الاجتماعي. لقد كانا على ضلال، وهذا ما سيكشفه لهما التاريخ في أقرب وقت...

في ربيع عام 1789 تم انتخاب غيوتن بوصفه نبيلاً حراً في تفكيره إلى عضوية المجلس التأسيسي، وبدءاً من حزيران وحتى تشرين الأول من عام 1791 شغل منصب سكرتير المجلس. لكن فكره ونشاطه العقلي لم يتمكن من مواكبة الأحداث المتسارعة.

... في 14 حزيران من عام 1789 سقط سجن الباستيل، فراحت الأحاديث حول رمزية السجن بوصفه برهاناً "على الاستبداد الدموي للملك" لتكون الشغل الشاغل في كل مكان. وقد رأى غيوتن بأم عينه مجموعة من البائسين المحكوم عليهم بالسجن الذين راحوا يحملقون بأعين حائرة ومندهشة في وجوه الذي جاءوا ليحرروهم. حتى إن أحد المساجين فقد عقله وراح يتشبث بالمقعد رافضاً بشكل قاطع أن يغادر مكان حبسه المذل. في آب تم إقرار "الإعلان حول حقوق الإنسان والمواطن"، بيد أن الملك لم يكن مستعجلاً للتوقيع عليه، ما جعله هدفاً لانتقادات حادة وقاسية في المجلس التأسيسي. أما غيوتن فكان يقدر مليكة إلى حد التقديس. ففي رأس الطبيب، كما في رؤوس آخرين كثير، كانت تختلط في آن أمور متناقضة: نعم، السلطة الملكية غير عادلة وظالمة بشكل عام، لكن الملك والملكة فلا يمكن بكل بساطة أن يكونا غير عادلين، ولذلك فإن هؤلاء مستعدون لأن يضحو بحياتهم دفاعاً عنهما.

كان النائب في المجلس التأسيسي غيوتن يجلس في مكتبه وهو يعمل على ضوء الشموع حتى مطلع الفجر، وكثيراً ما كان خادمه يجده في الصباح نائماً على "الديفون" وهو بكامل ثيابه وحتى وهو في حذائه. كان الدكتور يرسم بلا توقف مخططات ما، ويجري حسابات لا تنتهي. وفي لحظات حين يكون منفرداً مع نفسه، كان غيوتن يفرك يديه فرحاً. لقد ابتكر شيئاً غريباً بالفعل. وقد التقط نفسه يفكر بأن القدر ربما شاء أن يجعل منه أعظم رجل فاضل في تاريخ البشرية.

في 10 تشرين الأول من عام 1789 استمرت طويلاً جلسة المجلس التأسيسي، حيث راح الأعضاء يتناقشون بصخب من دون أن يرغبوا في مغادرة الاجتماع، ذلك أنّ مسيو غيوتن تقدّم إلى المجلس بمشروع قانون يُعدُّ الأهم الذي يناقش قضية الإعدام في فرنسا. كان غيوتن واقفاً أمام المجتمعين مهيباً وممتلئاً بالحماسة وهو يتكلم ويتكلم. كانت فكرته الرئيسة تتلخص في أن عملية الإعدام أيضاً يجب أن تكتسب طابعاً ديموقراطياً، لأن طريقة الإعدام في فرنسا كانت حتى ذلك التاريخ تختلف بحسب منشأ المحكوم عليه - المجرمون من عامة الشعب كانوا يشنقون أو يحرقون أو يقطّعون؛ وحدهم النبلاء كانوا يمنحون شرف قطع الرأس بوساطة السيف. أما الآن فقد آن الأوان لتغيير هذه الحالة الشنيعة بصورة جذرية. تلعثم غيوتن لثوانٍ ثم ألقى نظرة إلى أوراقه.

لكي أكون أكثر إقناعاً اليوم، فقد أجريتُ أحاديث كثيرة ومطولة مع السيد شارل سانسون...

ما إن نطق بهذا الاسم حتى ساد سكون مطلق في القاعة على الفور، كما لو أنّ الجميع حرموا فجأة من نعمة النطق والكلام. ذلك أنّ شارل هنري سانسون كان سفاح مدينة باريس بالوراثة. فقد احتكرت عائلة سانسون وظيفة السفاح منذ عام 1688 ولغاية عام 1847. فكانت المهنة تنتقل ضمن العائلة من الأب إلى الابن، وفي حال ولدت فتاة فإنّ الزوج هنا (في حال توفّر مثل هذا) كان مسلماً به أن يقوم بهذه المهمة. وللعلم، لقد كان صاحب هذه الوظيفة يتلقى أجوراً مرتفعة جداً، وكان متقناً لعمله بشكل كامل ومحترف، ولذلك كان السفاح يبدأ بتلقين ابنه "فنّ" المهنة بمجرد أن يبلغ الرابعة عشرة من العمر.

وقد كان غيوتن بالفعل كثيراً ما يقوم بزيارة بيت السيد سانسون، حيث كان غيوتن يسأل سانسون عن المصاعب التي يواجهها في مهنته. وبما أن سانسون لم يسبق له أن تقاسم همومه ومتاعب عمله مع شخص موقر ومحترم، فلم يكن يحتاج للإلحاح لكي يتحدث بصراحة تامة عن ذلك. بهذه الطريقة تعرف غيوتن على بعض جوانب عمل هؤلاء. مثلاً، في حالة الحكم بالإعدام عن طريق عجلة

الكسر⁽¹⁾، الطريقة الأبعش والأفطع من بين طرق التعذيب، فقد اعترف سانسون أن السفاح غالباً ما يحتفظ في البيت ببعض السم على شكل أقراص صغيرة الحجم، وأنه لا بد ستسبح له الفرصة من أن يدسّ للمحكوم عليه البائس واحداً منها في الفترات بين جلسات التعذيب من دون أن يلحظ أحد ذلك.

وهكذا - تابع غيوتن في جو من الصمت المطبق في القاعة - فإني لا أقترح توحيد طريقة الإعدام فحسب، إذ إنّه حتى تلك الوسيلة "النجبوية" للقتل عن طريق قطع الرأس بوساطة السيف، لا تخلو من عيوب. "لكي ينجح السفاح في قطع الرأس بوساطة السيف لا بد من توفر ثلاثة شروط هامة جداً: أن تكون الأداة حادة وصالحة تماماً، مهارة الذي يقوم بتنفيذ الفعل وهدوء مطلق من المحكوم عليه" - راح النائب غيوتن يقتبس من سانسون . كما يجب تقويم السيف وشحذه بعد كل ضربة أو بعد كل عملية حكم، وإلا فإنّ إنجاز الهدف بصورة سريعة في أثناء الإعدام بحضور الحشود قد ترافقه مشكلات (ثمّة حالات لم يتم فصل الرأس عن الجسد إلا بعد المحاولة العاشرة!). وفي حال كان يجب تنفيذ حكم الإعدام في أكثر من شخص دفعة واحدة بهذه الطريقة، فمن الضروري أن يكون ثمّة "أداة" أو أكثر في الاحتياط. وغير ذلك من المصاعب والإشكالات.

كفى! لقد سمعنا بما فيه الكفاية! - انطلق صوت أحدهم بقوة فجأة، وإذ بالحضور يضطربون فراحوا يضجون ويتصايحون ويصفرون.

لدي حلّ جذري لهذه المعضلة الفظيعة - صاح غيوتن.

ثم راح بصوت واضح وفصيح كما لو أنه يلقي محاضرة، يخبر الحاضرين عن إنجازه لرسم تفصيلي للألة التي تسمح بفصل رأس المحكوم بالإعدام عن جسده في لحظة ومن دون أدنى ألم. وكرر: فوراً ومن دون ألم. ثم راح يلوح في الهواء بأوراق في يده.

(1) - عجلة الانهيار أو عجلة الكسر تعرف أيضاً باسم عجلة كاثارين أو ببساطة عجلة القيادة، كانت جهاز تعذيب بُرئ استخدامهما في العصور القديمة حتى بدايه العصر الحديث لتنفيذ عقوبة الإعدام، وتستخدم في الإعدام بشكل علني عن طريق كسر عظام المجرم أو ضربه حتى الموت

في ذلك الاجتماع التاريخي تقرر المناقشة والدراسة والتدقيق في مشروع "الآلة العجيبة". وقد دخل في اللجنة إلى جانب غيوتن كل من الجراح الخاص بالملك أنطوان لوي، والمهندس الألماني توبياس شميدت والسفاح شارل سانسون.

في ربيع عام 1792 جاء غيوتن برفقة أنطوان لوي وشارل سانسون إلى الملك لويس XVI في قصر فرساي من أجل مناقشة المشروع الجاهز لآلة الإعدام. وعلى الرغم من الخطر الذي راح يحدق بالملك فإنه استمر في عد نفسه قائداً للأمة، وأنه لا بد من موافقته وتصديقه على المشروع. كان القصر خالياً موحشاً وكئيباً، بعد أن كان في السابق يضح بالناس وبالحاشية، وقد احتشد الجميع من حول الملك. مما جعل غيوتن يشعر بالأسى. أما الملك لويس السادس عشر فقد أعرب عن ملاحظة واحدة فقط، إذ تساءل: لماذا يجب أن تكون الشفرة نصف دائرية؟ وهل جميع رقاب الناس متشابهة من حيث الحجم؟ ثم جلس ساهياً على الكرسي وبدل بيده على المخطط شكل الشفرة من نصف دائرية إلى منحرفة (لاحقاً سوف يقوم غيوتن بإجراء تعديل جوهري: يجب أن تسقط الشفرة على رقبة المحكوم بالإعدام بزاوية 45). المهم هو أن الملك وافق على المشروع.

وفي نيسان من نفس العام 1792 كان غيوتن يتفصح في ساحة غريفسكايا، حيث تم نصب أول نموذج لآلة الإعدام التي صممها. كان ثمة حشد من العاطلين المتسكعين ينظرون إلى الآلة.

واو، كم هي جميلة، مدام غيليويتينا - المقصلة! - قال أحدهم مازحاً بوقاحة.

وهكذا من واحد إلى آخر ثبت اسم "غيليويتينا - المقصلة" على الآلة في باريس. وقد كان غيوتن وسانسون قاما بتجريبها في البداية على الحيوانات وعلى الجثث - وقد تبين أنها تعمل بطريقة رائعة ودقيقة مثل الساعة من دون أن تكون بحاجة لجهد بشري كبير.

وأخيراً أقر المؤتمر الوطني "قانون الإعدام وطرق تنفيذه"، فأصبح الإعدام من تلك اللحظة، كما كان يطالب غيوتن، لاغياً للفروقات الطبقيّة وواحدًا بالنسبة إلى الجميع بالتحديد عن طريق "مدام غيليويتينا - المقصلة".

كانت الآلة تزن 579 كغ، وأما وزن الفأس (أو البلطة) حوالي 39.9 كغ. وكانت عملية فصل الرأس عن الجسد تستغرق أجزاء من الثانية، وهذا ما كان يتباهى به الطبيبان غيوتن وأنطوان لوي، لقد كانا على ثقة تامة في أن الضحايا لا يتألمون. بيد أن السفاح العتيد سانسون حاول (في حديث خاص) أن يززع ثقة غيوتن في ضلاله السعيد، مؤكداً له عن علم وتجربة أن الضحية بعد أن يقطع رأسها تحتفظ بالوعي على مدى بضع دقائق، وأن هذه الدقائق الأخيرة تصحبها آلام في الجزء المقطوع من الرقبة يعجز اللسان عن وصفها.

من أين لك مثل هذه المعلومات؟ - سأله غيوتن مستهجنًا - هذا يناقض العلم تماماً.

كان سانسون في أعماق روحه ينظر بريية إلى العلم الحديث، ففي باطن روحه كانت محفوظة أساطير وحكايا كثيرة توارثتها العائلة على مدى سنوات طويلة من عملها التقوا خلالها مختلف أنواع السحرة والمشعوذين. ولذلك فقد سمح سانسون لنفسه أن يشكك بإنسانية التكنولوجيا المتقدمة. أما غيوتن فقد راح ينظر إلى السفاح بنوع من الشفقة وبعض الخشية من أن يكون السفاح سانسون، على الأرجح، بدأ يعاني من احتمال أن يفقد عمله؛ لأن أي شخص كان يمكنه القيام بتشغيل المقصلة.

في ذلك الحين كان غيوتن قد أصبح رجل اللحظة التاريخية وحديث الساعة في مختلف الصالونات والاجتماعات. كان محط ترحيب وتقدير واهتمام أينما ذهب وأينما حل. وهكذا فقد حقق غيوتن لنفسه ذلك المجد الذي لطالما حلم به وطمح إليه. كما أن الآلة (المقصلة) التي اخترعها أصبحت أحد أهم الوجوه الفاعلة في تلك الدراما العظيمة التي راحت فصولها تجري تباعاً.

ففي تلك الفترة كانت عجلة الثورة قد أخذت تدور بلا توقف. فقد ألغى دستور عام 1791 جميع الامتيازات، وتم اعتماد مبدأ الانتخاب وفصل السلطات في المؤسسات جميعها. وفي 10 آب من العام نفسه قامت الحشود بتحريض من قادة الكومونة باقتحام القصر الملكي. فاضطر الملك للهرب مع أسرته تحت حماية المجلس التأسيسي، لكن هذا الأخير اضطر للتراجع أمام الهجمات العنيفة لثوار الكومونة... فتم عزل الملك عن السلطة، وأعلنت الجمهورية في فرنسا.

وفي وقت لاحق -وبإيعاز من وزير العدل -دانتون امتلأت السجون بالكهنة وبرجال الكنيسة وبمختلف الأشخاص المشكوك فيهم، فراح الثوار يقتلون في الشوارع بلا تمييز ومن دون أي عقاب "الخونة" و"الأرستقراطيين" بغض النظر عن السن أو الجنس، ثم كانوا يقومون بعد ذلك بحفلات سكر وعريضة فوق جثث القتلى مباشرة. كان دانتون يراقب ذلك ويفرك يديه مبتهجاً وهو يردد: "الشعب ينتقم".

لأول مرة يدرك غيوتن أن ثمة أمراً غير صحيح فيما يجري حين صوّت المؤتمر الوطني الذي حلّ محلّ المجلس التأسيسي بفارق صوت واحد فقط لصالح الحكم بالإعدام للملك ذاته بتهمة "خيانة الثورة"، مخالفاً بذلك الدستور القائم الذي كان يعدّ العاهل شخصاً يتمتع بالحصانة. وعندما تسلّم غيوتن دعوة رسمية للمشاركة في 21 كانون الثاني من عام 1793 في مسرحية "جماع مدام غيليويتينا - المقتلة مع ملك فرنسا" فإنه فقد حواسّه. وما إن عاد إلى وعيه حتى عرف أن الشعب الثائر يرغب في نقل المقتلة التي ابتكرها هو إلى الساحة الواقعة تحت نافذة القصر الملكي التي سوف يصبح اسمها من الآن فصاعداً ميدان الثورة.

كان الملك الوحيد من الفرنسيين الذي مُنح امتيازين: أن يذهب إلى الإعدام في مركبة تليق بمقامه الرفيع (وليس في عربة مخصصة لذلك)، وأن يصعد إلى منصة الإعدام برفقة قس. بدأ قرع الطبول. كان غيوتن يقف متمسكاً بعينين مغمضتين، وقد ظهر في وعيه كما لو في الحلم الرقم "20"، فهو أكثر من غيره كان يعرف أن شفرة المقتلة تهبط إلى أبعد مدى مسموح لها عند الرقم 20...

أنا أموت من أجل سعادة فرنسا - وصلته كما لو عبر الضباب آخر كلمات لويس.

"عشرون" - نطق غيوتن متشنجاً ثم ركع على ركبتيه وراح يصلي بطريقة جنونية. لم يعره أحد اهتماماً. راح الحشد يموج ويهيج، ولتطلق عبر السماء الشاحبة للفجر صيحة "أورا" المتعطشة لسفك الدماء..

تدحرج الرأس المنفصل عن الجسد نحو الحشد المخبول الذي جعل من رأس الملك تلك الخرقة الحمراء بالضبط... "الإرهاب بلا هوادة ومن دون أدنى مساومة - من أهم فضائل الثورة!" - راح يزعم النائب العام لكومونة باريس بيير غاسبارشوميت.

لقد منحت المحكمة الثورية التي انتخبها الكونفيت صلاحيات مطلقة "باستخدام جميع الوسائل الممكنة من أجل فضح المجرمين والخونة"، لدرجة أن الحكم بالإعدام بات ممكناً الإعلان عنه بغياب المتهم، ودون أن يكون القرار قابلاً للاستئناف. مما جعل الحياة في باريس أشبه بكابوس رهيب، حتى إنه كان مرعباً السير في شوارع باريس، حيث كانت تشاهد المعابد والكنائس المدمرة والمدنسة، و"جثث أعداء الجمهورية" مرمية بين الأوساخ إلى جانب تماثيل القديسين... حتى تمثال القديسة جينيفوفا - شفيعه باريس التي لطالما صلت لها الشعب طالباً منها المساعدة في لحظات الكوارث والمحن الكبيرة لم ينج، بل تم قطع الرأس على منصة الإعدام ومن ثم ألقى به في نهر السين...

لم يعد غيوتن يؤمن بشيء أو يثق بأحد. بل أصبح أقرب شخص إليه هو السفاح سانسون الذي استمر في عمله بتنفيذ أحكام الإعدام بمساعدة المقصلة بكل أمانة. كما أنه بات يرى نفسه سفاحاً مثله مثل سانسون تماماً. وقد بدا كما لو أنه ما من شيء يمكنه أن يحرك أيّ مشاعر في روح وفي قلب غيوتن... ولكنه حين عرف بأن الكونفيت حكّم على ماريّا أنطوانيت بالإعدام فقد أصابه مسُّ بالجنون. لقد كانت الملكة على الدوام محطّ تبجيله وعشقه السري.

راح غيوتن من جديد يجري رسومات وحسابات معينة (وجدت بين أوراقه بعد تنفيذ حكم الإعدام بالملكة في 16 تشرين الأول من عام 1793). وهناك اعتقاد بأن تلك الأوراق بالضبط هي التي أودت بغيوتن لأن يمثل أمام المحكمة الثورية. لقد وشى به أحدهم. علماً أنه لم يُطلع أحداً آخر باستثناء سانسون على مخطئه. لقد أراد الدكتور جوزيف غيوتن إنقاذ الملكة عن طريق تعطيل الميكانيزم الذي يتحكّم بحركة البلطة في المقصلة الأساسية في ساحة الثورة. إلا أنّ الخطة لم تتجح إما لأن سانسون جبن ولم يُقدم على تلك المغامرة، وإما أنّ غيوتن لم يتمكن من شراء ذمم أولئك الذين كان يجب أن يقوموا بذلك تحت جنح الليل. المهم هو أنّ رأس الملكة طار بعيداً عن كتفيها البديعين.

يبقى لغزا السؤال حول ما إذا كان الدكتور والنائب غيوتن ساذجاً إلى درجة أنه كان يأمل أن الحكومة الثورية سوف لن تنفذ الحكم إذا ما تعطلّ الإعدام لأسباب تقنية كما كان شائعاً في الأوساط الشعبية حينذاك. مهما يكن فقد راح غيوتن في بداية عام 1794 يقيس بخطوات كسولة أبعاد الزنزانة الضيقة في سجن كانسيرجير.

راحت الثورة، كما كان يحدث عادة في التاريخ، تلتهم أبناءها. فقد أُعدم اثنان من قادة الثورة الكبار - بريسو وفيرنيو، وهذا الأخير كان يشغل منصب رئيس المجلس التأسيسي قبل ذلك. كما تمَّ إعدام الدوق أورليانسكي الذي صوّت على قرار إعدام الملك ومن بعده طارت رؤوس كل من لاروك وليغل ومعهما أغنيساروازالينلار وفوشكو والأميرة دي لامبال... ولم ينج من المقصلة عالم الكيمياء المشهور لافوازييه الذي لطالما كان موضع إعجاب وتقدير غيوتين.. حتى إنَّ المحكمة الثورية رفضت تأجيل الإعدام لبعض الوقت ريثما يدون العالم آخر اكتشاف له. وفي وقت لاحق جرى إعدام اثنين من أهم القادة الثوريين - دانتونو ديمولين.

راح غيوتين يتمرّق من إحساسه بالذنب وبأنه مسؤول عن جميع عمليات الإعدام. لقد تحققت نبوءة ميسمر المشؤومة! راحت أطيايف الذين تم إعدامهم بوساطة المقصلة تزور غيوتين في الحلم، فكان يطلب منهم المغفرة. وقد قرر أنه إذا ما حكم عليه بالإعدام على المقصلة فسوف يعتذر للشعب وسوف يبصق على "مدام غيليويتينا - المقصلة".

بيد أنَّ القدر لم يجمعه مع المقصلة. فمن المؤكد أن غيوتين نال حريته بعد إعدام روبسبير وأنه عاش متخفياً في منطقة ريفية بعيدة. ثمة رواية تقول: إنه تحوّل إلى مسيحي ملتزم، وإنه ظلَّ حتى آخر يوم من عمره يطلب الغفران لروحه. وقد عاش جوزيف إيغناس غيوتين حتى عام 1814، ومات بسبب اختلاطات دُمّل في الكتف.

أما "هدية" الدكتور غيوتين فقد خدمت البشرية طويلاً بعد ذلك. تشير الإحصاءات إلى أنه خلال الثورة الفرنسية تم إعدام أكثر من 15000 شخص بوساطة المقصلة. أما آخر حادثة إعدام بوساطة "مدام غيليويتينا - المقصلة" فقد جرت في أكتوبر من عام 1977 في مارسيليا: جرى إعدام القاتل حامد جادوبي.

اللافت هو أن السويد لم تلجأ إلى خدمات "مدام غيليويتينا - المقصلة" سوى مرة واحدة فقط وذلك في عام 1910. في حين أنه كانت له علاقة طيبة جداً مع "مدام غيليويتينا - المقصلة": لقد أعدم بوساطتها أكثر من 20000 شخص.

النص الأصلي "مصائر الناس"

من مجلة "حول العالم" الروسية

آراء

الإبادة بالثقافة

نبيل فوزات نوفل ♦

الإبادة بالثقافة، أو التطهير الثقافي، هو مفهوم أطلقه رافائيل ليميكين عام 1944، على أنه مُكوّن من مُكوّنات الإبادة الجماعية، أي هو تدمير الإرث الثقافي للشعوب، وإضاعة معالمهم الحضارية، وحرمانهم من قيمهم الثقافية، وأي شكل من أشكال نقل السكان الذي يهدف أو يترتب عليه انتهاك أو تقويض أي حق من حقوقهم، وأي شكل من أشكال الاستيعاب أو الدمج لثقافات أخرى، أو أن يُفرض عليهم أساليب حياة بموجب تدابير قانونية، أو إدارية، وأي شكل من أشكال الدعاية الموجهة ضدهم .

وفي عام 1989م استخدم روبرت بادينتر، مصطلح "الإبادة الثقافية" على التلفاز، وهو محام ألماني معروف، ليصف اضمحلال الثقافة التبتية في عهد /الدالي لاما الرابع عشر/، وقد استخدم الدالي لاما بنفسه المصطلح ذاته لاحقاً في عام 1993م، ومرة أخرى

♦ عضو اتحاد الكتاب العرب، كاتب وباحث من سورية.

عام 2008م، وأشار المؤرخ /جان برانفيلد /إلى اتفاقية هارتفورد لعام 1638 بأنها مثال تاريخي واضح وجلي على الإبادة الثقافية، حيث تم تجريم لغة البيكوت وكانت هناك نية مذكورة واضحة بأن هذا الكيان الثقافى يجب أن يندثر، ولقد صنف التدمير الثقافى للتراث الأرمني في تركيا على أنه إبادة ثقافية(1).

في كتاب "الإبادة الثقافية" للأكاديمي الأمريكي "لورنس دفيدسون" أستاذ التاريخ في جامعة بنسلفانيا حديث مستفيض عن الإبادة الثقافية، وفي عصرنا الراهن بات سلاح الإبادة بالثقافة من أهم الأسلحة التي تستخدمها القوى الاستعمارية الجديدة التي تديرها الإمبريالية التلمودية والماسونية العالمية بهدف تطويعها وقبولها طائفة خانعة للأفكار والمشاريع الاستعمارية، وقتل الروح المقاومة لديها، من خلال سياسة العولمة المتوحّشة، نظراً لقدرتها الفائقة على التأثير في الشباب، بسبب ما تملكه من تقانات حديثة، وهذا ما خططت له الماسونية الصهيونية وعبرت عنه في بروتوكولاتها ورسمت نهج سيطرتها على البشرية، من خلال قتل قيم الخير، وتكريس نهج "الغاية تبرر الوسيلة"، شاهدنا في ذلك:

1 - المذابح التي نفذها الأوروبيون تجاه الهنود الحمر في القارة الأمريكية، حيث تم التخلص من حوالي (18) مليوناً من الهنود بأنواع مختلفة من الإبادات، ونتيجة لذلك أصبح الهنود في منتصف القرن التاسع عشر ظاهرة حدودية لا ترى إلا على الحدود الأمريكية، فدخلوا مرحلة الغموض والنسيان، وكثير من الروايات الأمريكية التي انتشرت حول الهنود الأمريكيين في القرن التاسع عشر، كانت لا ترى في إبادتهم إلا قدراً محتوماً، وأن لا سبيل لإنقاذهم من الإبادة الجسدية، إلا بالإبادة الثقافية، أي أن يكونوا مسيحيين ومزارعين طيبين، وهنا تم تخدير ضمير الجميع، وأصبحوا يرون في الإبادة الجسدية والثقافية حقاً مشروعاً للرجل الأبيض، وأصبحت الإبادة طريقة تفكير!

2 - ما قامت به القوات الأمريكية أثناء احتلالها للعراق عام 2003م، فمنذ اللحظات الأولى التي دخلت فيها قوات الاحتلال الأمريكي والغربي للعراق، إضافة لما مارسه من عمليات إبادة جسدية بحق العلماء الذين يحملون شهادات عليا في

الاختصاصات التقنية في العلوم المتقدمة في الطاقة النووية والهندسة الوراثية وغيرها، توجهت بقيادة الموساد الصهيوني للبحث عن الآثار، وسرقتها ودمّرت بعضها، ودمّرت المكتبات كما فعل هولوكو عندما رمى مكتبات بغداد في النهر. 3 - ما قامت به المجموعات الإرهابية التكفيرية في سورية والعراق وليبيا، حيث عملت "داعش" على تحطيم المتاحف وأطلال مدينة الحضر الأثرية في الموصل شمال العراق، وتفجير المكتبة العامة في المدينة نفسها بعد تفخيخها ليخسر المشهد الثقافي العالمي ثمانية آلاف كتاب ومخطوطة في دقائق معدودة، وكان تنظيم داعش قد أحرق مئات الكتب في المكتبة المركزية داخل الحرم الجامعي في جامعة الموصل، وهذا ما حصل في الجوامع، والكنائس، والمعابد والأديرة وحتى اللغة، فقد مارسوا سياسة الأرض المحروقة، إنه عمل يصنف تحت التطهير الثقافي، أو الإبادة الثقافية، كما قاموا بتفجير أجزاء من قلعة /تلعفر/ التاريخية، /ومسجد السلطان ويس/ في نينوى، فقد مارسوا ما مارس هولوكو سابقاً، وكذلك فعلت هذه العصابات المتطرفة الإرهابية في سورية، فدمرت داعش في دمشق نحو (30) موقعاً أثرياً وتاريخياً وجزءاً كبيراً من مدينة حلب، وتعرضت المدن القديمة مثل إيبلا، وأفاميا، للنهب والسرققة، وتدمير تماثيل بعض الأدباء والمبدعين، كأبي العلاء المعري والفراتي، وبعض المساجد والأضرحة لبعض الرموز من الصحابة، وغير ذلك الشيء الكثير، وأعتقد أن هذا ما تم في كل دولة عربية دخلها الغزاة والعصابات المجرمة الإرهابية .

4 - ما يفعله الكيان الصهيوني في فلسطين، فكما نعلم أن يهود أوروبا عندما قدموا أرض فلسطين جاؤوا من بيئة تضطهدهم إلى بيئة تمنحهم امتيازات خاصة، فكان وضعهم يشبه المستوطنين في أمريكا الشمالية، فكانوا عنصريين وعدوانيين يملؤهم إحساس بالتفوق العرقي والثقافي، وقد ذكر بن غوريون في مذكراته عام 1941م أنه من الصعب تصور عملية ترحيل تامة من دون إكراه وحشي، لذلك كان ترحيل العرب الفلسطينيين أمراً ضرورياً في نظر بن غوريون من أجل إقامة الدولة اليهودية، وأعد قادة الصهاينة خطتين: الأولى تعتمد على قتل

السياسيين الفلسطينيين والقادة العسكريين، وتدمير البنية المدنية، والثانية تهدف إلى الترحيل الإجباري للفلسطينيين من أرضهم ووقعت مذابح تطهير عرقي عدة أحدثت تحسناً في الوضع الديموغرافي لليهود مقابل الفلسطينيين، ولقد انتقل الكيان الصهيوني إلى الإبادة الثقافية من خلال "عبرنة" الأرض عبر إبادة التراث الثقافي الفلسطيني، وبدأ هذا الكيان بمحاولة تسمية الأشياء وفق الرؤية الصهيونية، فنشأت "لجنة التسمية" لتهويد المناطق الفلسطينية، وفي الخمسينيات سمحت الحكومة الصهيونية للجنود بنهب المواقع المقدسة الإسلامية والمسيحية، والمتاحف، كما تم منع الثقافة الفلسطينية من الظهور حتى في اختيار اليونيسكو للقدس عاصمة للثقافة العربية عام 2009م، وأصدرت القوانين التي تُحرّم حمل العلم الفلسطيني، حيث يوجد حوالي (1500) قانون عسكري في الكيان الصهيوني يمنع على الفلسطينيين ممارسة حقهم في التعبير عن أنفسهم ثقافياً، حتى الاستماع إلى الموسيقى الفلسطينية، والعمل على تهويد مدينة القدس من خلال إطلاق أسماء حاخامات على شوارع سلوان لإحلال السيادة الإجرامية على القدس .

5 - ما قام به العثمانيون من إبادة الأرمن والمذابح التي طالت الأطفال والإبادة الجماعية أيام السلطنة العثمانية، وهي من أبشع الجرائم التي ارتكبت بحق المجتمع البشري .

6 - ما تقوم به الإمبريالية التلمودية من خطط لتدمير هويات الشعوب ونشر ثقافة العدم، والتعصب والتطرف، والعولمة المتوحشة التي تهدف لإلغاء الثقافات الأخرى وفرض ثقافة واحدة هي الثقافة الأمريكية التلمودية، وتسويق ثقافة الاستهانة بالقيم الوطنية والأخلاقية للمجتمع، وخاصة دماء الشهداء والأرض والوطن، فلا يهتم المواطن بتحرير أرضه المغتصبة لأن هناك سياسة تتبعها دولته بإقامة علاقات طيبة مع محتل تراب الوطن تحت ذرائع واهية، وبالمحصلة لا تفيد إلا الجالسين على الكرسي، وتسويق الخيانة على أنها وجهة نظر من خلال التساهل مع الخونة، وبالتالي يشعر الشباب أن لا قيمة لدماء الشهداء الذين استشهدوا دفاعاً عن الوطن والتي يُسوِّغها الانتهازيون من أجل مصالحهم.

مما تقدم يمكننا القول:إننا نعيش مرحلة الإبادة الشاملة لشعوب الجنوب الضعيفة على يد القوى الإمبريالية التلمودية، وأهمها الإبادة الثقافية كمقدمة لإبادتها، واستعمارها بشكل أسهل، وضرب انتماءات أبنائها لأوطانها.

كيف نواجه نحن العرب الإبادة الثقافية؟

على الرغم من أن الثقافة العربية قطعت أشواطاً مهمة في بناء الحضارة العربية، إلا أنها باتت تعاني من اختراقات وضعف نتيجة الغزو الاستعماري الذي قامت به الدول الاستعمارية من خلال ثقافة العولمة، وزرع المستوطنات الفكرية فيها، وأبرزها أصحاب الفكر التكفيري المتعصب الجامد الذي يصر على إبقاء العرب في الكهوف المظلمة إلى جانب أصحاب الفكر العدمي، والذين يريدون القضاء على كل قيم الأمة العربية وتراثها، هذا الواقع يحتم على المفكرين والمتقنين العرب التصدي بكل شجاعة وإخلاص وموضوعية لهذا الخطر القاتل، ونرى أن من أولويات المجتمعات العربية، وفي المقدمة المفكرون والمتقنون العمل على :

1 -وعي الفكر العربي القائم، انطلاقاً من أن وعي الشيء يعني إجرائياً إدراك ماهيته، كما يعني بيان ما له وما عليه، وذلك لمعرفة قدرته على الاستمرار في الحياة، وعلى مواجهة التحديات المفروضة على طبيعة الأشياء في مختلف الميادين. يضاف إلى ذلك أن وعي الشيء يعني فيما يعنيه الوقوف على حقيقة مشكلاته، لوضع الحلول الناجعة لمعالجتها، كما يعني إدراك أهميته في حياتنا، وشخصياتنا فردياً واجتماعياً وحضارياً وسياسياً، مما يفضي إلى استشعارنا لحقيقة انتمائنا للشيء الذي نعيه، مدركين ما يترتب على هذا الانتماء من الإحساس العالي بالمسؤولية تجاهه، وما يترتب على هذا الانتماء من المبادرة إلى فعل كل ما من شأنه صيانة معانيه، وكل ما من شأنه العمل على الإفصاح في المجال له ليقوم بدوره في مختلف جوانب حياتنا، وتوفير السبل الميسرة لتأدية دوره .

2 -نشر الثقافة التي تحمل معنى الحرية، والتضامن، والتعدُّد الفكري، والثقافي، ذي المضمون الاجتماعي، وعبر صيغ غنية وشاملة في التعبير المجتمعي، وتفتح آفاقاً متعددة للتواصل والتكامل، وقيام حوارات ثقافية خلّاقة متفاعلة لا

تنفي الاختلاف، ولا تلغي الرأي الآخر، وتطبيق جوهر العروبة المتضمن قبول التعددية بداخلها، لأن العروبة لكي تؤدي دورها بنجاح في المجتمع العربي لا بد لها أن تكون تعددية، تتألف في ظلها مختلف العناصر الموجودة على الأرض العربية، وهذا يتطلب أن نعيد الاعتبار للمؤسسة وليس للفرد، حيث أن الأوان للجميع أن يؤمنوا ويحصنوا ثقافتنا، وأن يكون الناس ومصالح الناس الأساس في تطبيق المشروع النهضوي العربي، وبالتالي من الضروري العمل على المثاقفة الوطنية والقومية وفق منهج تنموي متطور، يتخلص من التقليد والمحاكاة والتبعية، والقضاء على أي تفكير انفصالي، تحت أي مسمى كان عرقياً أم إقليمياً أم طائفيًا، ويتم ذلك من خلال:

1 - المناهج التربوية والتعليمية في المراحل المختلفة، والمؤسسات المعنية بالثقافة من خلال التركيز على جملة من الثوابت والقيم، وفي مقدمها: الانتماء الوطني، وإذكاء الوحدة الوطنية، والتمسك بهويتنا العربية التي هي أساس وجودنا، و تنمية روح المقاومة في أجيالنا، وثقافة الأمل التي تنتج الإنسان الذي يرنو ببصره إلى المستقبل بثقة وتصميم، وتعزيز الذاكرة الوطنية للأجيال العربية الشابة التي باتت المستهدف الأول من أعدائنا، وكشف ما يسمى جمعيات مدنية وتعريتها، ودكاكين حقوق الإنسان، ومؤسسات ثقافية مشبوهة ممولة خارجياً، على أساس الشعار التاريخي "أعطني مالاً أعطيك نضالاً"، "ديمقراطيين جدد"، وهم ممن اخترعتهم القوى الإمبريالية التلمودية، والذين لا يرون في التمويل الأجنبي عيباً، على الرغم من أنه عمالة صريحة ومهانة وعار، ولقد كشفت عن هؤلاء الكاتبة فرانسيس سوتورز في كتابها "من الذي دفع للزمار؟"2، ومقاومة الفكر الظلامي التكفيرى المتطرف، ويمثلهم في مجتمعاتنا العربية "الإخوان المسلمون" والوهابية، وما فرخوه من تنظيمات تحت أسماء شتى، وهذا يتطلب تكريس الأخلاق في المجتمع، وإبعاد العقيدة الدينية عن السياسة، وتكريس آداب الحوار بين الناس، وبين القوى السياسية والفكرية والثقافية، والعمل بشكل جدي على نشر الثقافة التي تقدر العقل واحترامه التي تتميز بالعقلانية العلمية التي تؤمن بأن العقل هو

مصدر للمعرفة، وبالتفكير الخلاق القادر على توليد الأفكار الجديدة التي تسهم في تغيير أفعالنا وسلوكنا، و القدرة على الإتيان بما لم يسبق أن ورد في الأذهان بشأن مشكلات قائمة من تحليلات وحلول، مما يؤدي إلى تطور البشرية والمجتمعات الإنسانية، حيث يتم توليد الأفكار الخلاقة من خلال استنهاض العقل، وتفاعل العقول، واندماج الأفكار، وهذا يتطلب إقامة المراسد الفكرية لحصد الأفكار المنتجة محلياً، ومن جانب آخر تأهيل كوادر قادرة على مسح "الأنترنيت" بصفة دورية لتصعيد الأفكار، واستجلاب الدروس المستخلصة من كل بقاع الأرض ضماناً لتنوعها، ومن أهم مميزات هذا الفكر أن يكون ناقداً، والفكر النقدي هو أن نعرف ماذا نعرفه، وماذا لا نعرفه، إنه الوعي بما نقوم به من إجراءات وما نتخذه من قرارات، وله معايير أهمها: الوضوح، والدقة، وتحديد محكم المغزى، والعمق، والشمولية، والاتساق، وقابلية الاختيار، والمنطقية، ومراعاة الأهمية، إلى جانب بعض الخصائص التي يجب أن يتمتع بها المفكر النقدي وأهمها: التواضع الفكري، وإدراكه لحدود معرفته، والتعاطف مع فكر غيره وجسارة طرح الأفكار، والإفصاح عن معتقداته، والتكامل المعرفي، واستقلالية الفكر ونزاهته. (3) ولقد أصبح اليوم ضرورة وحاجة ماسة من أجل خلاص تعليمنا من التلقين والتلقي، وحملات الخداع والتضليل والتدليس التي تقوم بها الدول الغربية تجاه شعبنا وأمتنا، والتصدي للحملة الضارية التي يشنها الغرب على الثقافة العربية، وحملات الكراهية، والحقد، والتشويه المقصودة، ومواجهة ظواهر التعقد التي تتفشى في جنبات المجتمعات العربية في مجالات الحياة المختلفة من فقر، وجوع، وبطالة، وتخلف، وظلم، واستبداد، وقتل وتدمير، وسرقة ثروات، و للتصدي لمشكلة حمل المعلومات الزائدة والنفاذ إلى مضمون المعرفة الكامن في جوف المعلومات، علينا أن نُعلم الطالب: لماذا وماذا وكيف يقرأ؟ وأن نرشد الباحث والمهني كيف يزيدان من إنتاجية القراءة وفعاليتها، وأن نخلص المواطن العادي من أمية القراءة الإعلامية لمواجهة التضليل الإعلامي، والتركيز على أن هدف القراءة هو استخلاص المعرفة لا تحصيل المعلومات، وهي أيسر الطرق لممارسة الإبداع الذي

يتميز بالأصالة، والطلاقة، وتقييم الذات، وهذا يعزز لدينا التفكير الخلاق في المجتمع، وبالتالي " التفكير النقدي يعطينا الإمكانية لنقد الفكر السائد، "لأن الفكر لكي يسهم في تحرير الواقع، يجب أن يبدأ بتحرير نفسه أولاً".(4)

وما أصدق قول "توماس جيفرسون": "إن النظم التي وضعها أسلافنا ليس فيها شيء مقدس، ولا ينبغي أن نُسلم بأنه يوجد شيء ثابت لا يمكن تغييره، إن العقل البشري هو مصدر النظم والقوانين والحقوق والحريات، وما دام هذا العقل في تطور مستمر، فإن كل ما ينشأ عنه لا بد أن يكون هو الآخر في تطور مستمر". فالتفكير النقدي، هو من أهم شروط الارتقاء الإنساني، وهو أن نعرف ماذا نعرفه، وماذا لا نعرفه، إنه الوعي بما نقوم به من إجراءات، وما نتخذه من قرارات، كما أنه من أبرز مَقوّمات الفكر التنويري الذي نحتاج إلى امتلاكه القدرة على التفكيك والتركيب، بحيث نصل إلى أفضل الخيارات من بين بدائل عدة متاحة، كما أن الأخذ بالعلمانية التي تتطرق من شعار: "الدين لله والوطن للجميع" تعطي هذا الفكر رصانة وقوة وتساهم في قوة ومنعة المجتمع، وهي كما يقول العالم البلغاري تودوروف " نقد الوصاية على فكر الإنسان وعقله، أي رفع الوصاية اللاهوتية لرجال الدين، وتحقيق استقلالية العقل بالقياس إلى النقل"، أي فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية. وبالتالي فالعلمانية مفهوماً وقواعد عمل في بنية النظام السياسي جاءت حصيلة لفاعليات فكرية واجتماعية وتاريخية عبر الزمن باتجاه التأصيل المستمر للحياة الديمقراطية على أسس المواطنة والمساواة والحرية (5)، أي العلمانية رأي في الدولة، وليست رأياً في العقيدة(8)، وبالتالي فهي لا تعادي الدين ولا تعني الإلحاد، إنها نظرية في المعرفة وليست نظرية في السياسة(7)، والدولة العلمانية هي تكريس للدولة القانونية في المحافظة على الإيمان والعقيدة والفكر، من دون أن يفرض على الآخرين، "وركيزتا العلمانية هما الحرية والمساواة، وباعتماد هذين المبدئين يسود السلم الأهلي والاستقرار في المجتمع. ومن الضروري التعامل مع العلمانية بوصفها عقيدة غير مضادة للدين، وإنما بوصفها مبادئ لتنظيم الاجتماع البشري"(8)، وهذا يتطلب احترام حرية

التفكير بالاستناد إلى المبدئين التاليين: الاعتراف باستقلال وجدان الفرد، والاعتراف بالأهمية الاجتماعية للمناقشة والنقد.(9)

هذه بعض الرؤى التي رأيناها تساهم في تنمية الثقافة العربية التي نحتاجها اليوم كونها الرافعة الأساس لأي تنمية، والقوة الرئيسة في تحصين أمتنا العربية من سموم رياح القوى الإمبريالية والصهيونية التي تعمل على إبادتنا من خلال الثقافة، وليس بالأسلحة المتطورة تكنولوجياً فقط.

لقد آن لنا أن نستفيق من نومنا على مخدة الخديعة التي غفونا عليها مئات السنين، حتى وقعنا أسرى في أحضان القوى الاستعمارية وأصبحنا ألعوبة بأيديهم، بل نقتل بعضنا بعضاً بناءً لأوامرهم ورغباتهم، ويسرحون ويمرحون في أرضنا وسمائنا وبحارنا، ولكن على الرغم من بؤس الحال فإن الفكر المقاوم العربي ما زال في الميدان، وبدأ يستعيد موقعه، وإننا على ثقة بانتصارنا على قوى الظلم والطغيان والظلام والتكفير.

المصادر:

- ❖ -لورانس دفيدسون، الإبادة الثقافية، نقله إلى العربية منار إبراهيم الشهابي، العبيكان 2017.
- 1 -ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
- 2 -فرنسيس ستورز، من الذي دفع للزمار؟ ترجمة طلعت الشايب، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، العدد 279.
- 3 - د. نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة ص26، عالم المعرفة، العدد 370، عام 2009، الكويت
- 4 - د. نبيل علي، المرجع السابق نفسه.
- 5 -عادل ظاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي - بيروت، ط3، 2015، ص37
- 6 -جورج طرابيشي، هرطقات، جزء أول، من الديمقراطية إلى العلمانية، رابطة العقلانيين العرب، بيروت -دار الساقي، ط1، 9ص، 2008.
- 7 - د.سليم بركات، مجلة الفكر السياسي، العدد 68، 2018، ص62.
- 8 -علي حرب، طواطؤ الأضداد، الآلهة الجدد وخراب العالم، بيروت، الدار العربية للعلوم، ص251، 2008.
- 9 -جلال فاروق الشريف، بعض قضايا الفكر العربي المعاصر، دمشق 1947.

نافذة أخيرة

دولة سيئة السمعة

الأرقم الزعبي

يسحرك بعض الكتاب بقدرتهم على تحليل الحياة الاجتماعية وتكثيفها في قوالب قصصية لا تسقط قيمتها الأدبية والجمالية، لا بل بعضها يتحول إلى قالب للقياس عليه.. هنا نقف أمام ما كتب نجيب محفوظ في مجموعته القصصية "بيت سيئ السمعة" التي نشرت لأول مرة عام 1965م. نجيب محفوظ المتحكم بشخصيات القصة والرواية، الصانع للحدث بقدرته وسيطرة ينقلك من خلال مهارات السرد القصصي من حالة إلى حالة، ويلتف على الحدث بخلق حدث، وصولاً إلى تراكم أحداث تُظهر عيوب المجتمع وعورته.. والسؤال: هل يمكن سحب مضامين قصة "بيت سيئ السمعة" على ما يجري في المجتمع الدولي من عهر وقتل وتهجير وفقر وكسر إرادة وسيطرة؟!.

من البديهي أن هناك دولة أو مجموعة دول سيئة السمعة وراء كل هذا.. يمكن تحديد هويتها وجغرافيتها وتاريخها وتفصيلها، والوقوف على حقيقة خروجها على مبادئها⁽¹⁾، وتسويق الشر والسيطرة على اقتصاديات العالم... متخفية تحت ستار القانون الدولي ومكافحة الإرهاب ورمزية تمثال الحربة الأجوف الواقف على موجة ماء....

(1) مبادئ ولسون: الأربعة عشر، الصادرة عام 1918م.

بات الاسم أكثر تحديداً ووضوحاً.. إنها الولايات المتحدة الأمريكية دولة لا يكفيها عبارة "دولة سيئة السمعة".. حاول بعضهم من دون جهد تأليف: موسوعة لرصد جرائم الولايات المتحدة الأمريكية⁽¹⁾.. أقول: من دون جهد؛ "لأنه لا تكاد بقعة من العالم إلا تشهد أمراً سيئاً لهذه الدولة.

فهي أسُّ الإرهاب وأساسه، هي من خلقت القاعدة وداعش وأخواتها، ولن ينسى العالم صداقة السيناتور "جون ماكين" للبغدادي، وصداقة عائلة بوش مع عائلة ابن لادن... ودور مافيا تجارة المخدرات في احتلال أفغانستان بحجة أحداث 11/11/ أيلول، وتدميرها للعراق تحت عنوان أسلحة الدمار الشامل، والخفيُّ السيطرة على نفطها وتصدير أكبر كمية من نفط العراق بأقل زمن ممكن، ونشر الكراهية والطائفية في العراق.. ودورها في اليمن وسورية ونهب دول الخليج تحت عنوان الدفاع عنها وعن المصالح المشتركة.. هنا نسأل: هل من المستغرب أن تقوم دولة سيئة السمعة، مثل أمريكا، بقصف مصنع شركة أرامكو في 14/6/2019، لتأجيج الصراع والابتزاز أكثر... ليس غريباً على دولة تسببت في حرب فيتنام وبنما و"نيكاراغوا" أن تفعل ذلك.. إنها راعية الإرهاب في العالم.. عدوة العلمانية والداعم الرئيس للإرهاب، وهي من تسبب في قتل وتهجير أكثر من 25/ مليون مسلم حول العالم، هي ذاتها من تُدير المنظمات الإرهابية وتُدعم المواقع الإلكترونية المتشددة وتطبع الكتب الدينية التي تروّج للتطرف، وتطلق المحطات التلفزيونية التي تدعو إلى الكراهية وتشجيع الفوضى في دول العالم تحت عنوان الدفاع عن حقوق الإنسان والحريات ونشر الديمقراطية، وهي في العمق تدعم أقدم أشكال الدكتاتورية في الحكم، وهي ذاتها من تلعب الآن في المنطقة وتسرح وتمرح، وتبشّر بحروب مذهبية وقودها وممولّها الدول الإسلامية، والمستفيد منها أمريكا وريبتها "إسرائيل"...

أما أن لنا أن نستفيق ونستيقظ ونتنبه لخطورة الدور الأمريكي في المنطقة والعالم قبل فوات الأوان!!؟

(1) انظر، كتاب: حسن، حسين سرمك "موسوعة جرائم الولايات المتحدة الأمريكية". ج (1) وج (2)، الصادر عن دار ضفاف (الشارقة/بغداد)، ط (1)، 2017م.